القسم الثاني

الفتح العربي الإسلامي

من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

(٢٥) العرب في فلسطين إلى السلطان سليم

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويـان. أولهما عـام وهـو حب العلم وثانيهما خاص وهو رغبة الإطلاع على تاريخ قومه وبلاده فالقسـم الأول من هذا الموجز يهم العربي الذي طمع في العلم ورغـب فيـه أمـا القسـم الثاني فمن الواجب المتحتم على كل عربـي أن يمزجـه بدمـه ونفسـه لارتبـاط تاريخ بلاده بأُمته الذي ينعش نفسـه ويحييهـا فـأني أعجـب كيـف يكـون المـرء وطنياً إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أُمته وأبطالها أو لم يتعلـم لغتهـا وآدابهـا فتصديرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربيـة في سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية بل لكونها ملأت صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مرابعهم ومصـايفهم وشيدت فيها منازلهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبـل الإسـلام في فلسطين نؤيد بها حجتنا:

(١) ورد في التواريخ الموثوق بها إن نرام سين بن سرجون ملك الكلـدان غـزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق.م. وصادف في سينا حكومة عربيـة. ثـم حـارب

قبيلة مقان "معان" العربية وأسر أميرها وقد ظهر في آثار بابل ما يثبت هذا القول.

(٢) إن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود وهم مديان "مدين" ومساكنهم شرقي الأردن وحارب عباديد وأخذ منهم طائفة وأسكنها في بلاد السامرة .

(٣) في القرن الثامن ق.م. أخضع تغلث فلصر عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حبيبة فعزلها وولى مكانها أحد رؤسائهم .

(٤) لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحاصر غزة كانت حاميتها عرباً فقاومته أشد المقاومة .

(٥) بشَّر أحد تلامذة المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد في أعمال الرسل ص ٢ : ١١.

(٦) كان الحارث حاكم دمشق عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد في رسالته إلى أهل مدينة كورنثوس (كورنثوس ص١١ : ٣٢) .

(٧) لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.

(٨) التجأ هركانوس المكابي إلى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده على أخيه أرستوبولس .

(٩) إن فيلبس الروماني الذي صار أمبراطوراً في رومية سنة ٢٤٤ ب.م. كان

عربياً من بصرى حوران (راجع جبون)

Every mans's Encyclopedia Vol. 10, p298

(١٠) حكومة تدمر وتمدنها وتجارتها ونفوذها في الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمدن الإسلامي) .

(١١) حكومة بطرا "الحجر" في الجنوب الشرقي من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسورية .

(١٢) الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقي الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهي دولة عربية مسيحية .

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة "العرب" تجول في غزواتهم المظفرة ومحارباتهم الكثيرة في فلسطين وحسبنا دليلاً إن هاشم جد أبي النبي "صلى الله عليه وسلم" مات في غزة ودفن فيها وأننا نعرض عن دولة اللخميين والهيكسوس وحمورابي واليمن لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكنا نقول إن سكان فلسطين القدماء كالكنعانيين والعمالقة الذين أتوا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجديس إذ يصعب على الفكر التصديق بأنقراض قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجوز أن تستحيل إلى غيرها وتندغم فيها. فيظهر مما تقدم أن العرب لم يفيضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا في عهد الفتح الإسلامي وهذا يحملنا على الترجيح إن مجيئ كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطئة وتمهيداً للفتح الأخير وفي هذه السطور دليل كاف على أن العرب

سكنوا فلسطين قديماً وشاركوا بهـا غـيرهم قبـل الفتـح الإسـلامي وتمتعـوا بهـا بعده. والمستقبل يتوقف على نشاط الأمة واستعدادها يمليه الأفراد على مدوّني التاريخ فلنحذر أن يكون شراً.

(٢٦) النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفـي الاعتقـادات ومتفرقـي النزعـان فمنهـم الموحد والمشرك والصائبي وعـابد الأصنـام ولكنهـم أجمعـوا علـى احـترام مكـة المقدسة فكانوا إذا حجوا إليها يطوفون حولها وينزعون سـلاحهم فـلا يحـاربون فيها ولا في أشهرهم الحـرم وقـد سموا أيـام الحـرب الـتي حدثـت في أحرامهـم "الفجار" لأنهم أرتكبوا فيها فجراً. فيظهر أن العرب كانوا وقتئذ في بدء تطـور جديد فنفوسهم تتحفز للنهوض وتحركها حروبهم الداخلية وتعديـات جـيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذي قار وانتصار العـرب مـن الفـرس كـل هذا يدل على تمخض فكري وغليان عقلي وتأهب للانتقال السياسـي والديـني الذي يطرأُ على الأمم وتلا ذلـك ولادة محمـد صلـى ا لله عليـه وسـلم في سـنة ٥٧٠ ب.م. في مكة من قبيلة قريش وهي من أشرف قبائل العرب ولها سـدانة الكعبة فيتم صغيراً وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فأشتهر بالأمانـة والخلق الطيب فسمي بالصادق الأمين فتاجر بأموال السيدة خديجة بين الحجـاز والشام على حصة من الربح فأرضاها بمعاملته وأعجبت بـه فخطبهـا وتزوجهـا وإنتفع بمالها .

كان في نفس محمد أسرار محجوبة تحركهـا العوامـل والبواعـث الخارجيـة

فتثيرها ثم تخمد إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة وبعثه ا لله نبياً فبث دعوته ثلاث سنوان بين أهله وعشيرته الأقربين فأسلم له نفر وكان يجتمع بهم خفية في دار الأرقم المخزومي إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقال لهم "علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل" فأجابه النبي صلى ا لله عليه وسلم إنا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر: والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان فخرج النبي صلى ا لله عليه وسلم في صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فلقبه النبي صلى ا لله عليه وسلم بالفاروق لإنه فرق بين الحق والباطل فنزلت الآية ﴿حسبك ا لله ومن أتبعك من المؤمنين﴾[1] فجهر النبي صلى ا لله عليه وسلم بدعوته وطاف على القبائل وهو يتلو عليهم ﴿أن ا لله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[2] فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفنهم في الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم على عقيدتهم ثابتون وأن أعظم شرط لنجاح المبادئ الجديدة وطنية كانت أو دينية الجزم بصحة المذهب والثبات عليه مهما إعتراه من المحن.

ظلت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أخوال النبي صلى ا لله عليه وسلم الأنصار ونصروه عصبية وحباً في الدين ومزاحمة لقريش عليهم يحولون وجهة الحج إلى مدينتهم لأن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول ا لله فهل

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢) سور النحل الآية ٩٠.

عسيت أن أظهرك ا لله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا فقال له أنتم مني وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم. فلما طال بهم العسف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليحتموا بالأنصار إلا عمر بن الخطاب فأنه تقلد سيفه وتنكب قوسه وإنتضى في يده أسهماً وطاف بالبيت سبعاً وصلى متمكناً وقال:

"شاهت الوجوه لا يرغم ا لله إلا هذه المعاطس من أراد أن تثكله أُمه ويتيتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي" فما تبعهُ أحد ومن ذلك اليوم الموافق سنة ٦٢٢ بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثت المناوشات والسرايا والغزوات فجهز النبي صلى ا لله عليه وسلم سنة ٨هـ جيشاً يبلغ عدده ٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين وسورية وأمّر عليه مولاه زيد ابن حارثة فسار حتى وصل إلى معان فقابلهم الروم بجيش كبير من قبائل العرب المتنصرة لخم وجذام وبلي فتحاربوا في قرية مشارف ومؤتة✪ من البلقاء فانكسر المسلمون وهزموا وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيار جدّ آل هاشم في نابلس فلم ينثن عزم النبي صلى ا لله عليه وسلم ولم يصبر على الغلبة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفدت إليه أمراء الجزيرة مسلمين مؤمنين بدينه الجديد فكان يصحبهم بالقرَّاء ليفقهوهم في الدين ويعلموهم الصلاة وقد ساعد على سرعة انتشار الدين الإسلامي نفوذ حكم الأمير في قبيلته فأنه عند ما كان يسلم الأمير تتبعه القبيلة بلا عناء فعم الإسلام الجزيرة كلها ووجه النبي صلى ا لله عليه وسلم نظره لفتح سورية وفلسطين فجهز

✪ سميت هذه السرية بسرية مؤتة .

جيشاً وقاده بنفسه إلى تبوك فصالحه أهل أيلة وأهل مقنا راجعاً ثم جهز جيشاً لثالث مرة سنة ١١هـ وأمرّ عليه أسامة بن زيد ففاجأته المنية والجيش على تمام الاستعداد. وإن محاولة النبي صلى ا لله عليه وسلم مرات فتح فلسطين وسورية لحجة بالغة على تطلعه ورغبته في ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمتها العراق.

(٢٧) النبي محمد صلى ا لله عليه وسلم

كان عظيماً في نفسه أميناً في دعوته صادقاً في نبوته جلياً في شريعته مصلحاً بأخلاقه وتعاليمه جمع كلمة العرب وأزال التفرقة من بينهم برابطة جديدة متينة وهي الإسلام الذي لم يكن مقصوراً على كونه ديناً وحسب بل كان رابطة قومية سياسية إجتماعية ألف بينهم وقذف بهم إلى المعمور ففتحوه بنواة روحه وغرس عمله وانا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث الشريف النفيسة المدبجة بالحكمة والفضائل.

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام، ولا تعتدوا إن ا لله لا يحب المعتدين﴾[1]، ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[2] الدين المعاملة. الدين النصيحة ﴿ومن عفا وأصلح فأجره على ا لله﴾[3] ولتكن منكم أُمة يدعون إلى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨.

(٢) سورة العصر

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[1] ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشد من الغي﴾[2] ﴿من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[3] « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى »[4] « ليس المسلم الذي يشبع ويجوع جاره »[5] وقال في خطبة حجة الوداع: إستوصوا بالنساء خيرا (راجع نموذج الفضائل الإسلامية). ولما قبض النبي صلى ا لله عليه وسلم إرتد العرب ورجعوا إلى دينهم القديم لأنهم أسلموا عصبية وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين في نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو الإسلام فقتلوا المعلمين وطردوا المفقهين وأمتنعوا عن أداء الزكاة وأدعى كثير منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتى ثابوا إلى رشدهم وأذعنوا للإيمان بعد جهاد عنيف.

(٢٨) إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن نفذ بعث رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم الذي كان مجهزاً بقيادة أسامة بن زيد وعدده بين ٧٠٠-١٠٠٠ وزوَّده بوصية جليلة وهي صفحة نيرة من أخلاق أبي بكر قال:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٣) سورة الكهف الآية ١٨.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

"لا تخونوا ولا تغـدروا ولا تغلـوا ولا تمثلـوا ولا تقتلـوا طفـلاً ولا شـيخاً كبيراً ولا أمرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شـاة ولا بقـرة ولا بعـيرا إلا لله وسـوف تمـرون بـأقوام قـد فرغـوا أنفسـهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له".

وقصارى القول إنها خـير مثـال للوصايـا الإنسـانية وجديـرة بـأن تكـون قدوة حسنة لقواد جيوش عصرنا المتمدن الذيـن أمـروا بقتـل الأطفـال وهتـك النساء وتخريب البنايات وقطع الأشجار وهدم الكنائس. فسـار أسـامة بسـريته إلى أن وصل أُبنى بناحية البلقاء شرقي الأردن وأوقع بقبائل قضاعة ورجع بعـد أربعين يوماً. فأظهر أبو بكر الحكمة بإنفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند يخمـد بهم ثورة الردّة ليوهم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسـلمين قـوة عظيمـة لا طاقة لهم بها.

وقد خسر العرب في هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبط همتهم وكـروا بجيش لا بشرذمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الإستيطان لا الإصطياف.

(٢٩) وقعة اليرموك

صعب على أبي بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشـهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم بجمـوع كثـيرة أكثرها من العرب المتنصرة بهراء وتنوخ ولخم وسليم وجـذام وغسـان ونزلـوا من دون زيزاء بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازلهم وحطوا بين "فحـل"

وزيزاء والقسطل* وبعد قتال فل جيش خالد وارتد مخذولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان ومعه وجوه مكة وأشرافها وغايته البلقاء وعزّزه بثلاثة أمراء وهم (١) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذ عن طريق المعرقة إلى أيله "العقبة" (٢) الوليد بن عقبة ووجهته الأردن ثم استبدله بشرحبيل بن حسنة وسلك طريق تبوك (٣) أبو عبيدة بن الجرّاح وهدفه حمص وطريقه البلقاء وعلياء الشام وأمر يزيد على الجميع وزوّده بوصية وهي:-

"اني قد وليتك لابلوك وأجرّبك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك .. إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وإبدأهم بالخير وعدهم أياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس إلخ".

فسار الأمراء وأوغلوا بجيوشهم وتغلغلوا في إحشاء البلاد فنفرت منهم طوالع الروم ظانين انها غيمة عما قريب تقشع. فلما رأوهم اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هبوا من غفلتهم وجمعوا جيشاً من العساكر والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل.ويقول جبون أنه كان في هذا الجيش ٦٠ ألف جندي عربي بقيادة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليزعزعوا قوتهم ويبلغوا أربهم لأن وقفة قوادهم كانت شبه مثلث رأسه في البلقاء مع يزيد "لحفظ خط الرجعة" وطرفاه الواحد في الجنوب الغربي من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبي عبيدة في الجنوب الشرقي من حوران

---

* قرى صغيرة متهدمة في شرقي الأردن قرب ماديا .

وفي الوسط "الأردن" شرحبيل "خط المواصلة" ففطن المسلمون لمقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويتراجعوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم ومحاربتهم فخالفوه وأجمعوا على رأي عمرو وعسكروا في اليرموك✡ وأرسلوا إلى أبي بكر فأشار عليهم بالاتحاد ريثما يأتيهم المدد وأمر خالد بن الوليد قائد جيوش العراق إن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعاً إلى الشام فامتثل الأمر وسار بقطعة من الجيش فمرَّ بتدمر وأغار على جمع من تغلب وكلب وقاتل بني مشجعة وأتى إلى ثنية العقاب. وأغار على غسان يوم عيد فصحهم ثم وفد على المسلمين في اليرموك فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: إن هذا اليوم يوم من أيام ا لله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم." وأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة فقنعوا منهُ وولوه أياها فعباهم تعبية فنية "كراديس كراديس". ووضع نفسه في المقدمة يقودهم إلى الأمام وفي القلب أبا عبيدة وفي الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل وفي الميسرة يزيد بن أبي سفيان والقعقاع بن عمرو. وكان قائد الطلائع قباث بن أشيم والقاص أبا سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبأ البطولة والثبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل لخالد "ما أكثر الروم وأقل المسلمين" !! فأجابه "ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان" وهنالك

✡ هو نهر صغير يصب في الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة يرموك معربة عن اللغة اليونانية "يرومكس" Heiromax .

كان يستعد الجيشان لمعركة فاصلة فأما أن يفوز المسلمون ويسودوا على سورية وفلسطين ومن هناك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم على أعقابهم إلى مهدهم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من البسالة والصبر ما كاد يزيل المسلمين عن موافقهم لولا إن النساء حملن العصي والرماح والعمد وضربن بها وجوه الخيل إذا الوت وحرضنهم قائلات "إلى أين يا حماة الإسلام" فصمدوا وقد شد الروم على ميمنتهم فكشفوها وسحقوها ثلاث مرات وهم صابرون وأبو عبيدة يتخطى الصفوف فيشجع الجمع ويضمد جروح الجرحى ويعدهم بالنصر إلى أن فازوا وإنسحب الروم من أمامهم معتصمين ببيسان تاركين أسلابهم والغنائم. وقد إختلف المؤرخون في عدد الجند فقال ابن الأثير ان جنود العرب كانت ٤٦ ألفاً والروم ٢٤٠ ألفاً أي أن الجندي العربي يقابل خمسة من الروم. وقال المطران الدبس في "موجز تاريخ سورية" أن العرب كانوا ٤٠ ألفاً والروم مئتي ألف ومنهم من بالغ ومنهم من أعتدل والحقيقة أقرب إلى الصحة كلما قل العدد .

كانت هذه المعركة مفتاح النصر ومقدمة للاستيلاء على سورية وفلسطين ربما إن جميع المعارك الحربية التي حدثت بالقرب من هذه البقعة كانت فاصلة فانا نورد هنا بعضها:

١– وقائع مجدّو: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطين من عواقبها .

٢– وقعة اليرموك: التي زال بها ملك الروم عن الشرق .

٣– معركة حطين: بين طبرية والناصرة وهي المعركة التي قضى بها صلاح الدين على الأفرنج وأخرجهم من فلسطين .

٤- اصطدام الترك بالمماليك في اللجون ورجوعهم القهقرى .

٥- معركة مرج ابن عامر: بين جنين والناصرة التي هزم فيها النبي جنود الألمان والأتراك وأسر منهم خمسين ألفاً .

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى في تلك البقعة الضيقة قاضية وفاصلة بين المتنازعين فمن فاز ملك البلاد وَمن غلب على أمره خسرها ورجع مخذولاً. ولم يك هرقل متوقعاً هذا الإنكسار فلما فل جيشه جزع وإنسحب إلى شمال سورية وولى أخاه "ثيودور" القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب النجدات من قومه ليكرَّ ثانية على العرب ويجليهم عن البلاد. أما العرب فأنهم ولوا بشير بن كعب الحميري مدخل اليرموك كي لا يقطع عليهم العدو خط المواصلة ونشطوا إلى فتح دمشق وقد فاجأتهم وفاة الخليفة أبي بكر وإستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصروا المدينة سبعين يوماً ودخلها خالد عنوة وأبو عبيدة صلحاً. وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي عزل فيه خالد كان قبل فتح دمشق أو بعده والأرجح انه قبله لأن شروط التسليم والمعاهدة ومخابرة الخليفة كانت كلها بإسم أبي عبيدة الذي إستخلف على دمشق يزيد ابن أبي سفيان وإنقلب إلى فحل (آبل) شرقي الأردن لمحاربة رافضة جيش الرومان الذين أووا إلى بيسان فوجد المياه والأوحال والمستنقعات محيطة بالمدينة وقد حجزت المسلمين عن التقدم فكتبوا يستشيرون الخليفة ولا نية لهم بأن يريموا فحل حتى يأتي جوابه فظن الروم بهم ضعفاً وأغتروهم فوجدوا المسلمين على حذر وقاتلوهم وهزموهم فغاصت أرجلهم في الوحل فأتوا على آخرهم

وكان نصراً مبيناً وسمي ذلك اليوم "ذات الردغة، فانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى حمص. فلنتركه وشأنه ولنذكر ما تم وجرى في فلسطين .

(٣٠) أجنادين✿

محل واقع بين بيت جبرين والرملة كما أجمعت على ذلك كتب التاريخ وياقوت وقد اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين ومن يستقصي التواريخ العربية يشتبه عليه أنه حدث موقعتان متعاقبتان والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلاً غير مرتبط بالآخر فانسابوا في داخل البلاد فلما نشط الروم لمناهضتهم تركوا ما فتحوه وانضموا إلى بعضهم في اليرموك تحت لواء خالد بن الوليد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها ثم انتشروا ثانية يفتحون ويغنمون فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان ففتحاها صلحاً. وفتح أبو الأعور السلمي طبرية سنة ١٤ هـ سنة ٦٣٧م على صلح دمشق وان يشاطروا المسلمين المنازل في المدينة وما أحاط بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمرو أشغال حامية الروم وعساكرهم المرابطة في المدن المسّورة خشية إجتماعهم فيؤلفوا قوة كبيرة ورأى ان يناضلهم غير مجتمعين فسرح يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية لحصار قيسارية وانطلق علقمة بن مجززّ لحصار غزة وعلقمة بن حيك ومسروق بن

✿ نظن ما ورد في كتب التاريخ كان سهواً وتحديد المكان مغلوطاً وربما كانت أجنادين جنين أو اللجون أو طولكرم على حسب ما ورد في سير الحوادث الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم "ابن عامر" حيث تكثر المياه.

فلان العكي لقتال إيليا "القــدس" وأبـو أيـوب المـالكي إلى الرملـة.ونهـض هـو جنوباً فأقـام علـى أجنـادين وفتحهـا سـنة ١٥هـ سـنة ٦٣٧م. وقتـل في هـذه الواقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة آرسـلان ثـم سـاحت القواد في فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية ونابلس ويافا وعمـواس وبيـت جبرين. وإستعصت الرملة والقدس وقيسارية وعسقلان فإجتمع معظـم الجيـش لحصار القدس وقد بلغ ٣٧ ألف مقاتل وكانت السماء ممطرة فـنزل خـالد بـن الوليد مما يلي باب أريحـا وعـروة بـن مهلهـل مـما يلـي طريـق الرملـة وواصلـوا الحصار أربعة شهور .

(٣١) فتح بيت المقدس

عجز الروم وايقنوا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون سـيما والمسـلمون يحترمون بيـت المقـدس ويقدسـونها فـلا يسـمحون بهـا لغـيرهم فتنـاجوا بينهـم وأقروا على التسليم وطلبوا إلى جيش أبي عبيدة إن يصالحهم على صلـح أهـل مدن الشام وان يكون المتولي للعقد الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلـك فحضـر إلى الجابيـة وقـدم عليـه رسـل إيليـا فتلقـاهم المسـلمون برايـة الأمـان وصالحوهم على الجزية وأمنوهم على القدس وحيزها وهـذه شـروط المعـاهدة: التي كتبت في الجابية كما أوردها الطبري وهي:

بسم ا لله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد ا لله عمر أمير المؤمنـين أهـل إيلياء من الأمان:

"أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها

وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتفض منهـا ولا مـن حيزهـا ولا من صلبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء إن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الـروم واللصـوص فمـن خـرج منهم فأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهـم فهـو آمـن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزيـة. ومـن أحـب مـن أهـل إيليـا أن يسـير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فأنهم آمنون على أنفسـهم وعلـى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بهـا مـن أهـل الأرض قبـل مقتـل فلان .. فمن شاء منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهـم شئ حتـى يحصـدوا حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد ا لله ذمة رسوله وذمـة الخلفـاء وذمـة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزيـة كتـب سـنة ١٥هـ شـهد خـالد بـن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاويةبن أبي سفيان" .

أما معاهدة الرملـة فهـي عـين معـاهدة بيـت المقـدس، وقـد أورد الإنـس الجليل زيادة على هذا العهد منه:

١- أن لا تبنى كنائس ولا تتجدد في خطط المسلمين إذا هدمت.

٢- ان يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.

٣- أن لا يـواروا جاسوسـاً ولا يكتمـوا غشـاً للمسـلمين ولا يمنعـوا مـن أراد الإسلام.

٤- إن لا يبيعوا خمراً ولا يضروا بأحد من المسلمين .. إلخ

فلعل الزيادة التي ضمنها الإنس الجليل للمعاهدة المسطورة في تاريخ الطبري هي ذيول أضافها عليها الملوك والخلفاء المتأخرون بحسب الظروف وإلا فالطبري أولى بدرجها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق .

وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخص إلى بيت المقدس بثيابه البسيطة وموكبه الديموقراطي لا كما نرأه من قواعد وملوك القرن العشرين الذين لا يسيرون إلا بالقطارات الخاصة أو الأتوموبيلات الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبة فقدم المدينة وخيم خارجها إلى أن سلموها فدخلها وزار كنيسة القيامة فلما أدركته الصلاة خرج منها وصلى أمامها حيث كنيسة سيدتنا مريم فأنشئ هناك جامع وأمحى ولم يصلّ في خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد .

ثم طلب إلى البطريرك "صفرونيوس" أن يريه مكان هيكل سليمان فذهب وأياه ودله عليه فلما شاهده مزبلة قذر وأطلالاً دثرة دهش وأخذ يحفن التراب وينحضه بكفيه فتبعه من معه حتى تصيب عرقاً وأمر ببناء مسجد فوق الصخرة في الحرم الشريف الذي يقدسه جميع مسلمي الأرض ثم أمرّ علقمة بن مجزز على نصف فلسطين الجنوبي وقاعدته إيليا وعلقمة بن حكيم على نصفها الآخر وعاصمته الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح معاوية بن أبي سفيان مدينة قيسارية بوشاية رجل يهودي دلَّ العرب على نفق فدخلوا منهُ إلى المدينة وفتحوها وسنة ٢٣هـ فتحت عسقلان ولم يبق للروم

مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربيـة في حكومتهـا وشعبها .

طاعون عمواس

كانت عمواس قرية يزيد بن أبي سفيان وهي اليوم من ناحيـة بـني مـالك تبعد ١٧ كيلوا متراً إلى الشمال الغربي من القدس انتشر منها الطاعون فمـات أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأناب مكانه معـاذ بـن جبـل فطعـن وكلامهمـا مقبور في غور بيسان ويجاورهما قبر شرحبيل بن حسنة. وتوفي أيضـاً يزيـد بـن أبي سفيان. ولما عين عمـرو بـن العـاص أميراً عاماً للجنـد أمرهـم إن يتفرقـوا ويتوزعـوا علـى رؤوس الجبـال متبـاعدين عـن بعضهـم فخـف الوبـاء وإنقطـع المرض.

ويقدر مجموع من توفي بهذا الطاعون خمسة وعشرين ألـف نفـس وليـس هذا العدد بكثير لما شاهدناه في الحرب العظمى .

وفي سنة ٦٣٨م تم للمسـلمين الفتـح فقسـموا البـلاد إلى أربـع ولايـات "أجناد" فكانت فلسـطين قسـمين (١) جنـد الأردن وعاصمته طبريـا وبلادهـا بيسان وعكـا والفولـة (٢) جنـد فلسـطين وحاضرتـه الرملـة وبلادهـا القـدس وعسـقلان وقيسـاية وأريحـا ويافـا وعمـان (٣) دمشـق وبدهـا بـيروت وصفـد وصيدا (٤) الثغـور الـتي فصـل العباسيون جـزءاً منهـا سـنة ١٧٠ هـ وسمـوه العواصم وحاضرتها حمص وحلب وإنطاكية وطرابلس. إما مدينة القدس فكـان لها إمتيازات خاصة لما لها من الإحترام الديـني في نفـوس المسـلمين وقـد التبـس

على بعض المؤرخين فظنوها مستقلة عن الرملة والحقيقة إنها كانت تابعة إليها وسنة ٢١هـ تعين معايو والي دمشق والأردن حاكماً على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية وكليكيا ومعرة النعمان ولما إستخلف عثمان أشاف إليه جميع البلاد السورية فإنتدب معاوية علقمة بن حكيم الكناني والياً لفلسطين وأبا الأعور السلمي للأردن.

(٣٢) إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب في فتوحهم

أ- إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد ما كانت عليه فظل أكثر السكان يدينون بدينهم متصلين برئيسهم الروماني في القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين بالخليفة العثماني ويمارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتخذتها الحكومة لغات رسمية في دواوينها إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان فأبطلها وألغاها واستبدلها باللغة العربية وضرب الدنانير الإسلامية فأصبحت الحكومة العربية وقتئذ مستقلة إستقلالاً إقتصادياً ولغوياً وسياسياً. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة العربية ليستفيدوا من حرفة الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعربوا ودخل أكثر العجم في الدين الإسلامي وتدينوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محضة يتخللها شرذمة قليلة من غير المسلمين .

(ب) أسباب النجاح*

مما يدعو إلى الأعجاب بهمة العرب وأعظامهم تفوقهم على غيرهم بالرغم عن عدم انتظامهم فأنهم تغلبوا على الممالك الراقية ودكوا عروش الحكومات المؤسسة التي كان لها الجند المنظم ولديها الحصون المنيعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يعلل كثير من المؤرخين هذا النصر وينسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لمد ظلهم حتى أقصى المعمور وهذه الأسباب :

(١) نشاطهم وخفة أثقالهم واكتفاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة جمالهم ووسائط نقلهم .

(٢) اعتقادهم المتين في نص الآية ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ولا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[1] ومن الأحاديث: « الجنة تحت ظلال السيوف » [2]

(٣) مهارتهم وفروسيتهم ونجابة خيلهم وتفوقهم عدوهم في المبارزة واتقانهم رمي النبال.

(٤) عظمة رجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبي بكر وأبي عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية .. إلخ

---

* راجع زيدان – تاريخ التمدن الإسلامي .

(١) سورة المنافقون الآية ١١.

(٢) متفق عليه.

(٥) الصبر والمطاولة وقلة حاجتهم لـلزاد والعلـف الـذي كـان يبهـظ عدوهـم فيمل القتال قانعاً بالسلامة .

(٦) العصبية الجنسـية فإن القبـائل العربيـة المسيحية الـتي كـانت خاضعـة إلى الحكـم الرومـاني الأجنـبي صـافحت أخوانهـم العـرب وإنضمـت إليهـم وحاربت معهم الرومان وهنا رجحت جامعة اللغة على جامعة الدين .

(٧) المحافظة على خط الرجعة فانهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطع العدو وينطوي عليهم فيأخذهم أسرى .

(٨) ظفر المسلمين بالروم في وقعة اليرموك فانه أكسبهم قوة معنويـة واحتقـروا عدوهم فاستصغروا شأنه وطمعوا فيه.

(٩) ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهـالي أحكـامهم وملـوا ولايتهم وتمنوا تبديلها .

(١٠) اليهود فأنهم كانوا آلـة نقمـة للعـرب مـن الأهـالي وأداة إنتقـام ودليـلاً للطرق شأنهم مع كل فاتح.

(١١) عدل المسلمين والتسوية بين الناس فلم يكونوا يفرقون بين أمـير وحقـير ورفيع ووضيع "ديموقراطية بحتة" .

(١٢) استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضـوا لدينهـم أو معـاملتهم أو أحكامهم القضائية والعرفية.

(١٣) وفرة الغنائم فقد فاض على المحاربين بحر من ذهب فكانوا يجنون من فتح البلاد غنى عاجلاً وغنائم جـاهزة حتـى إن كثـيراً مـن العـرب المتنصـرة

اعتنقوا الدين الإسلامي وحاربوا حباً في المال .

(١٤) ضعف الفرس والرومان بإختلافاتهم الداخلية وعدم إخلاص القواد لملوكهم وأمرائهم والذي يقابل بين فتح سورية ومصر وبين فتح العراق يستغرب كيف خضعت الأوليان واستعصت الثالثة واتعبت المسلمين فظلت بعد فتحها محافظة على لغتها وعاداتها ولم يمض عليها قرن ونصف حتى أستبدلت حكومتها الفارسية الوثنية بحكومات فارسية إسلامية فإصطفت الدين فقط وأنفت أن تتعرب كما فعلت الحكومات الأوروبية فأنها تنصرت مع المحافظة على جنسيتها ولغتها والسبب في ذلك أن دولة الرومان كانت مستعمرة لسورية فلما غلبت إنحسرت عن البلاد. وظل السكان وأكثرهم العرب فاندمجوا في الحكومة الإسلامية والقومية العربية وأصبحوا أمة واحدة. أما العراق فكانت حكومته فارسية وكان سكانه عجماً فلما سقطت دولتهم ظلوا فرساً فاعتنقوا الدين الإسلامي ولكنهم لم ينسوا إستقلالهم فتربصوا حتى سنحت لهم الفرصة فاستعادوا ملكهم وقد حاولوا مرات قلب الحكومة العربية فقتلوا عمر بن الخطاب وتحزبوا لأل البيت وساعدوهم في ثوراتهم ونصروا بني العباس ولا غرض لهم من كل هذا إلا دك الدولة العربية واسترجاع دولتهم الفارسية.

(٣٣) الفتح العربي الإسلامي والخلفاء الراشدون

شرعت الحكومة العربية توسع حدودها وأطرافها فتجاوزت سورية

ومصر وشواطئ افريقية الشمالية والعراق وأيران والأفعان إلى أن توفي عمر بن الخطاب وانتخب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لتغير الأحوال وتفرق النزعات والآراء فهمَّ بإدارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان فأخذ برأيهما وولى أهله الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابقة في الإسلام والشهرة في الفتوح. فاغتنم هذه الهفوة يهود الحجاز الذين دخلوا في الدين الإسلامي ليفسدوه ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد ا لله بن سبأ "ابن السوداء" الشام ليوغر الصدور مبشراً بكلمات براقة منها: "إن معاوية يقول المال مال ا لله إلا أن كل شئ لله يريد أن يحتجنهُ دون الناس ويمحو اسم المسلمين ويتلو الآية ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل ا لله فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] وقال أعجب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم" ووضع أحاديث كثيرة وزوّر كتباً ورسائل أرسلها إلى البلدان يؤلب على عثمان. فإختمرت الثورة ونضجت في أفكار المسلمين فاشتعلت الفتنة وإضطرمت في كل الأقطار خلاً سورية لأن معاوية كان ساهراً يقظاً فخرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقمين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمرين وبعضهم يقول أن علياً أحق بالخلافة من سواه فإنجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار علي مكانه وشذ طلحة والزبير وخدعا عائشة أم المؤمنين زوج النبي صلى ا لله عليه وسلم وخرجوا إلى العراق وخالفوا علياً

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

فحاربهم وظفر بهم "في وقعة الجمل فقتل الاثنان وأُسرت عائشة وامتنع معاوية بسورية ولم يبايع لعلي وأخذ يتهمه بأنه رأس الضلالة. وأنه هو الذي ألب على عثمان وأوى قتلته فاجتمع بنو أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب على وهبّ لمقاتلته ومناجزته فالتقوا بصفين سنة ٣٦ هجرية واختلفت بينهم الرسل وتكرر السفراء طمعاً في الصلح فلم يتوفقوا لخير. وفي سنة ٣٧ هجرية أبتدأت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم أتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلاف ورفقاً بالمسلمين فأختار معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضي علي بأبي موسى الأشعري. ولما اجتمع الحكمان وتفاوضا كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقناً للدماء ويكون الأمر شورى فخدع أبو موسى وقام خطيباً فخلع الرجلين (علياً ومعاوية) ثم قام عمرو فخلع علياً وأقرَّ معاوية فلم ترض شيعة علي بهذا الحكم وافترقوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضمحل وشأنه يسفل وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وبايع جنده ولده الحسن ثم إنتقضوا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين في التنازل عن الخلافة فنهاه قائلاً "أياك أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذّب أحدوثة أبيك" فلم يسمع منهُ وخلع نفسه بعد ستة شهور من حكمه وبايع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه في آخر ربيع الأول سنة ٤١هـ فسمي هذا العام "عام الجماعة" لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكنَّ الخوارج كثروا وعصوا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تنبت أختها وظلت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والأباضية هي بقية أولئك

الخوارج الذين تكوّنت نواتهم من نفثات إبن سبأ والذين حاربوا بني أمية وبنى العباس وكادوا يهدمون الدين الإسلامي لولا أنه كان فتياً ويقوضون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

(٣٤) نبذة من تاريخ القرآن الكريم

إن للقرآن أهمية كبرى في تَوحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة نذكر هنا شيئاً عنه:

نزل القرآن على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في مدة ٢٠ سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعسب النخل واللخاف أو يستظهرونه ويسمون حفظته الحفاظ. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكي ومدني. أما بأعتبار الناسخ والمنسوخ فله أقسام: قسم ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو ٤٣ سورة الفاتحة، يوسف، يسين إلخ. وقسم فيه الناسخ فقط وهوست: الفتح، الحشر، المنافقون، إلخ. وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو ٢٥ سورة البقرة، الحج النور إلخ .

والنسخ على ثلاثة أضرب أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثاني ما نسخ حكمه دون تلاوته الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم على عهد النبي صلى ا لله عليه وسلم فلما قبض وارتد العرب وقتل أكثر الحفاظ في غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه فتردد ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأبقوه عند أبي بكر حتى مات فأخذه عمر فلما قبض بقي عند إبنته حفصة وفي خلافة عثمان إنتشر

المسلمون في كل الأقطار فذهب القرّاء في تلاوته مذاهب شتى فشهد حذيفة بن اليماني اختلافاً بين المسلمين في قراءة بضع الآيات ورأى بعضهم يفضل قراءة أبي موسى على ابن مسعود ✿ فأنبأ عثمان بذلك وأنذره بسؤ العاقبة فبعث إلى حفصة بنت عمر أن إرسلي الصحف لننسخها ونردها إليك فأرسلتها فدعا عثمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظة القراء وقال لهم أن إختلفتم في شئ فأكتبوه بلسان قريش ففعلوا ذلك سنة ٣٠هـ وكتبوا ستة مصاحف فبعث عثمان بأربعة منها إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى أثنين في المدينة. والمصاحف التي نتداولها الآن هي فرع عن ذلك الأصل. كتب القرآن بلا شكل ولا أعجام حتى أيام زياد فوضع نقطاً لونها يخالف لون الكلمة "أعجام غير واف" ثم وضع أبو الأسود الدؤلي نقطاً ليتميز بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس هذا من السريان والكلدان أما صور الحركات التي وصلت إلينا وهي الضمة والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها أفراداً وأزواجاً. ثم أضيف إليها الحركات المماتة وهي الإمالة (e) والروم (u) والإشمام (o) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى مقتطعة من كلمات تؤدي المعنى المراد نحو مدَّ " ~ " صل " ´ " شدَّ " ˜ " . ولكن حفني بك ناصف قال في كتابه حياة اللغة العربية أن الشكل موجود قبل الإسلام وأسند حجته بأدلة وبراهين قاطعة. ومن المسلمين من يعتقد إن القرآن

✿ ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيحة فابيدت الفاسدة ولم يبق إلا القرآآت السبع وأشهرها قراءة حفص (راجع الأتقان) .

قديم ومنهم من يقول أنه حادث ومحدث هذه البدعة درهم بن الجعد إما المأمون فقد أمتحن العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

(٣٥) آثار الخلفاء الراشدين في فلسطين

الأبنية التي على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر "مناطير" وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذاً داهمهم العدو أنذر بعضهم بعضاً نهاراً بالدخان وليلاً بالنار فينتقل الخبر بسرعة كالتلغراف ويأتيهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيافات وفرض عطاء للمجذومين وبناء الجوامع في القدس ونابلس وبيت لحم وغيرها.

(٣٦) أبطال النهضة الإسلامية

أن جميع النهضات القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تمهيدية تسهل لها النجاح فالانتباه الفكري والنبوغ الشخصي ركنا النهضات. وقد نبغ في الصدر الإسلامي أساطين عظام كان لهم القدح المعلى فى تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بنا أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل اقراراً بفضلهم واعترافاً بعظمتهم وتنويهاً بأعمالهم لنشفي بهم النفوس المريضة ونداوي الهمم الضعيفة فنقتصر هنا على سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيراً في إحياء الأمة العربية فنقول.

١- عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بني عدي بطن من بطون قريش وكنيته أبو حفص كان تاجراً وله السفارة في الجاهلية فإذا ما اختلفت قريش وقبيلة أخرى انتدبته

وحده للمفاوضة ولا حق لسواه أن يشاركه فيها .

كان المسلمون ضعافاً حتى أسلم فاعتز الإسلام بـه وصحـب النـبي "ﷺ" خير صحبة وكثيراً مـا نـزل القـرآن بمـا أشـار بـه وشـهد غـزوات بـدر وأُحـد والخندق وبيعة الرضوان. ولما ولي الخلافة قال "اللهـم أنـي شـديد فليـني وأنـي ضعيف فقوّني وأني بخيل فسخني ان رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموه" فأجابه أعرابـي قائلاً لو رأينا فيك أعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا. فحمد ا لله الـذي أوجـد في قومـه من يقوّم أعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ الهجري وفرض العطـاء "رتـب الرواتب" ودوَّن الدواوين فأسس نظارة المالية والحربية والإعاشة وقسـم البـلاد إلى منـاطق وعـين عليهـا الأمـراء ورتـب الغـزوات في الشـتاء "الشـــواتي" وفي الصيف "الصوائف" ورتب البريد مجانـاً وأمـر ببنـاء البصـرة والكوفـة وتخطيـط شوارعهما بعرض ٢٠ ذراعاً والأزقة بعـرض ٧ أذرع وحجـر علـى المجذومـين ومنعهم ملامسة الناس.

وأقـام العيـون "الاسـتخبارات" يوافونـه بالأخبـار وعـين قاصـاً "مفتشـاً" يطوف علـى المـأمورين ويحقـق الشـكايات سـراً وعلنـاً ويحمـل إليـه مـا وجـده بالتدقيق. وأسس الحسبة "مجلس البلدية" لمشارفة الموازيـن والمكـاييل ومراقبتهـا ولمنع الغش وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان فيجازي مـن حملـه أكـثر ممـا يطيـق ويهدم البناء المحدث في مجتمع السوق وحظر علـى النـاس الإزدحـام في الطـرق وأمرهم أن يستروا الكنف وينحوا مثاعبها عن السـبل. وكـان إذا تكلـم أسمـع وإذا مشى أسرع وكان ديموقراطياً لا فرق عنـده بـين الملـك والسـوقة وحادثـة

الملك الغساني جبلة بن الأيهم مع الفزاري مشهورة وقصة عبد ا لله بـن عمـرو ابن العاص مع القبطي ظهيرة وقوله المأثور "مذكم تعبـدتم النـاس وقـد ولدتهـم أمهم أحراراً" فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جماح الغطرسـة البدويـة وبنى عليها التساهل الحضري.

كان يحب التجارة وحرَّض قوَمه على مزاولتها فقـال "لا تلهكـم الرياسـة وحبها يا معشر قريش لا يغلبنكـم الغربـاء علـى التجـارة فأنهـا ثلـث الإمـارة" وكان إذا رأى فتى نشيطاً سأل عن حرفته فإن قبل لا حرفة له هان عليه وكان يكره الكسول ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقـول للقـراء أرفعـوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع في الدين والولع في الزهـد فـأمر أن يعجـل بأفطـار رمضـان وأن تمشـي النـاس مشـية غـير ناكسـي رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود أني أعلـم أنـك لا تضـر ولا تنفـع. ولما أخذ الناس يعظمون الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى ا لله عليه وسلم قطعهـا وفي الحقيقة أنه مـن أعظـم بنـاة الإسـلام ومكوني الأمـة العربيـة. وفي خلافتـه فتحت سورية والعراق وإفريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

٢- خالد بن الوليد

هو من بني مخزوم بطـن مـن بطـون قريـش كـان قـائد فرسـان قريـش في الجاهلية "الأعنة والقبة" فلما أسلم أنفذه النبي مع سـرية زيـد بـن حارثـة لغـزو الروم فكانت موقعة مؤتة وأستشهد فيها القواد إلى أن رفع المسلمون الراية إليه فأخذها وقاتل حتى اندق في يده بضعة أسياف فسماه النبي سيف ا لله المسـلول

ثم اختاره أمير فرسان "سواري" المسلمين وأبلى في فتح مكة البلاء الحسن وهدم صنم العزّى وهو ينشد.

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت ا لله قد أهانك

وفي غزوة تبوك بعثه النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى أكيدر دومة الجندل فأسره وكان ترساً وسوراً للمسلمين. وبعد أن قبض النبي صلى ا لله عليه وسلم وارتد العرب وجهه أبو بكر لمقاتلتهم فأسلم بنو طيّ قبل قدومه خوفاً منه ونهد إلى طليحة الأسدي الذي كان قد أدّعي النبوة ففلّ جيشه وهزمه وقصد "أم زمل" فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بني تميم وتخلف عنه الأنصار منتظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد "أنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار ولو أنه لم يأت إلىّ كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت أن أعلمت بها الخليفة فأتتني لم أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو إبتلينا بأمر ليس فيه منه عهد أشاور قومي ثم أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرهكم" فسار ثم لحقوه فقتل مالك بن نويرة أمير بني يربوع وتزوج أمرأته فغضب عمر وطلب من الخليفة أن يقتص منهُ فأجابه: أرفع لسانك عن خالد فأني لا أشيم سيفاً سله ا لله لقد تأول فأخطأ. وأستفحل أمر مسيلمة وأدَّعي النبوّة ونكب جيش عكرمة وهزم جيش شرحبيل فرماه أبو بكر بخالد فذهب وقد خاف فرار من معه ففصل الأحياء عن بعضها ليظهر بلاء كل قبيلة على حدة. وبعد حروب شديدة عزمه وقتله ولما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتح الأبلة ثم الحفير وقصد الحيرة فدفع إليه إياس الطائي ٩٠ ألف درهم جزية.

وقدم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبـي بكر. وهزم الفرس على نهر الثني وعند الوجة وعلى نهر الليس فأتاه الدهـاقين وصالحوه وسار إلى الأنبار ففتحها وحزف إلى عين التمر وامتلكها. وقد تضايق القائد عياض بن غنم وإستصرخه فأجابه: (من خالد إلى عياض أياك أريد) فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتمم فتح العراق إلى أن بعثهُ أبو بكر إلى سورية فأخذ معه نصف الجيش ومر بتدمر وأتى المسلمين في اليرموك فوحد قواهم وخطب فيهم وعبى الجيش تعبية فنية وبعد قتال عنيف هزم الرومان ولم يقم لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صفوف المسلمين كجندي وحارب في بيسان ورجع إلى سورية فافتتح البقاع وفتح قنسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعشاً وخرب حصنها حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال "عجزت النساء أن تلد مثل خالد لقد أمَّر نفسه يرحم ا لله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال".

ثم استدعاء إليه وترضاه فعاتبه خالد بكلام قاس فأجابه عمر "ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بهم" وكتب بذلك إلى الأمصار وهي أعظم شهادة لحفظ كرامة خالد الذي مثلى عرش الأكاسرة ودك أرائك القياصرة ولما أتته الوفاة قال عند أحتضاره "لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما تموت العير فلا قرت أعين الجبناء" وفي الجملة فأنه رجل الإسلام

وقامع الرّدة وبطل اليرموك ولو أردنا إستقصاء أخباره لطال بنا البحث فنترك تحليل هذه الروح العظيمة إلى نباهة القراء وإستنتاجاتهم.

٣- أبو عبيدة

هو عامر بن عبدا لله بن الجراح ويتصل في فهر بنسب النبي صلى ا لله عليه وسلم الذي لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبي صلى ا لله عليه وسلم وفي موقعة بدر كان أبوه مشركاً فتصدى له وهو يحيد عنهُ ثم قتله وهذا من أعظم الإيمان وأثبت المبادئ الصادقة والعقائد المتينة التي لا يحول دونها شفقة ولا حنان وقد اختاره الفاروق قائداً عاماً لجيوش سورية فقام بوظيفته خير قيام وكان محترماً في قومه مستشاراً فيهم رفيقاً بضعفائهم معروفاً بالرأي والدهاء. سلمت إليه طائفة من دمشق صلحاً وحاصر فلول اليرموك في بيسان وحاربهم في فحل فأجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحاً وسلمت إليه معرة النعمان وحماة وامتنع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بحفر سرب في الأرض يستر الفرس والفارس وأظهر لأهل المدينة أنه راحل وصبر حتى جنهم الليل فعادوا إلى حفائرهم فظن أهل المدينة أنهم أنصرفوا ففتحوا الأبواب وخرجوا فلم يرعهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها عنوة. وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشاً يرابط الأعداء لوقوعها على الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجند كثيف فخطب أبو عبيدة في قومه قائلاً: "أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حي

منكم فأنه يصفو له ملكه وأما من مات فله الشهادة ولا تكرهوا الموت فأنه خير من حياة المغلوب" .

ولما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال "لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني سمعت نبيك يقول أنه أمير هذه الأمة" .

وقد توفي في طاعون عمواس وَدفن في غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبني مشهده الملك الظاهر بيبرس وأوقف عليه بلاداً وأرضاً واسعة .

٤- عمرو بن العاص

هو من بني سهم بطن من بطون قريش وكان يعير بأمه لأنها سبية ولولا هذا الحيف الذي لحقه لزاحم على الخلافة. كان جزاراً وتاجراً وله مكانة سامية عند قومه لشهرته بالمكيدة واختراع الحيلة وكان يلقب داهية قريش .

تأخر اسلامه ولكن حسنت صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبو بكر وعمر وكانت ليلة قرّة فكلمه أبو بكر كي يسمح للعرب بوقود النار فأجابه لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها فشكوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني كرهت أن آذن لهم بوقود نار فيرى عدوهم قلتهم ويعطف عليهم فحمد رأيه وأرسله على صدقات عمان فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم أقبل فنزل بقّرة بن هبيرة فأكرم مثواه ولما عزم على الرحلة خلا به قرة وقال أن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة "الزكاة" فإن أعفيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع وأن أبيتم فلا تجتمع عليكم فقال له عمرو "أكفرت يا قرة أتخوفنا بالعرب فوا لله لا وطئن عليك الخيل في حفش أمك".

وأعماله في فلسطين درجناها ملخصة فلا حاجة لاعادتها. كان شديد التطلع إلى مصر فهوَّن فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فسار بأربعة ألاف جندي ثم تبعته النجدات ففتح الفرما وبلبيس وأسر بنت المقوقس فجهزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرقل رفض الصلح فأقبل المقوقس إلى عمرو وعرّفه أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتالك ولكني لا أخرج مما دخلت فيه وأنما سلطاني عليّ وعلى من أطاعني وأرفق بالقبط فأنهم أعوانك فجمع عمرو عدته وهاجم الفسطاط فامتلكه وبث قواده فشرعوا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له الفتح وقد تألف قلوب القبط فأعاد بطريركهم بنيامين الذي نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه على فتح مصر فقط بل جهز جيشاً واخترق الصحراء واحتل برقة وبنيغازي وطرابلس الغرب وما جاورها وحفر الخليج من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة التمساح. ولما أصاب أهل الحجاز مجاعة عام القحط والرَّمادة طلب منهُ الخليفة زاداً فكتب إليه "أما بعد يا لبيك ثم لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام" .

وهو الذي أبطل تقديم عروس النيل ولقد وصف مصر فقال: "مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدا في جريته وطما في ردته فتخرج محفورة يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها

الحب فبينما هي لؤلؤة بيضاء فإذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة زرقاء فتبارك ا لله أحسن الخالفين".

ولما صرفه على عن ولاية مصر حقدها عليه وحرك لسانه فاعتزل السياسة وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين علي ومعاوية فكان من أكبر أنصار الثاني وأعظم أعوانه مستشاره في صفين وأحد الحكمين الظافر الذي ظل يمهد لمعاوية السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أقل نجم علي وتكمشت حدوده فأخذ طعمته مصر وتملكها (ومن شاء الزيادة فليراجع ترجمة عمرو بن العاص تأليف حسن إبراهيم).

الفصل السادس

(٢٧) فلسطين أموية

بوفاة علي بن أبي طالب انقرضت الجمهورية العربية وتبدلت حكومتها الشورية بملك عضوض. فكان الخلفاء الراشدون لا يرثون الخلافة عن آبائهم بل كانوا يتعينون باتفاق الأمة واجماعها. وكل من كانت تضعف ثقته بالخليفة يتربص عن البيعة منزوياً فلا يروّع إذا ما خيف شره فأن أضمر خلافاً أو سوءاً يجبر على البيعة واتباع الجماعة الإسلامية طلب إليهم الرجوع إلى السنة فأن فعلوا سكن مستقيماً و الاجاز له خلع الطاعة.

مضت هذه الجمهورية العربية وابتدأت الحكومة الأموية بمؤسسها الكبير والإداري القدير معاوية بن أبي سفيان الذي لم يكن طموحه إلى الخلافة شرهاً بل كان رجلها الفذَ وبطل بني أمية الفرد الذين هم كانوا زعماء قريش في الجاهلية. فلما جاء الإسلام عابوه وقاوموه باطلاً فأرغموا يوم فتح مكة على الدخول فيه فترضاهم النبي صلى ا لله عليه وسلم وجعل لهم امتيازات خاصة فقال « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وأعطى من غنائم حنين لكل من أبي سفيان وابنه معاوية ١٠٠ بعير ليتألفهم فسموا ﴿المؤلفة قلوبهم﴾ وظل معاوية يتقدم إلى أن صار كاتب وحي النبي ثم اشترك وأخاه يزيد في فتح

---

(١) متفق عليه.

سورية ونالا في خلافة العمرين مكاناً علياً فوليا إمارة الجند وإدارة البلاد فلما ولي الأمر عثمان وقتل إتخذ معاوية قتله ذريعة لنيل الخلافة وصار يطالب بقتلته ويماطل في بيعة على إلى أن فاز عليه وبويع له بالخلافة سنة ٤٠هـ في بيت المقدس. وسنة ٤١هـ بايعه الحسن فخلا له الجو ولم يبق له مخالف فإتخذ مدينة دمشق عاصمته لأن أهالي سورية وفلسطين كانوا حزبه القوي وركنه المتين فسكنوا بينهم وتألفوا قلوبهم وأقتطعوا الضياع في فلسطين فأوقف عثمان قريته سلوان على فقراء بيت المقدس وعمواس كانت أقطاع يزيد بن أبي سفيان والرملة مركز سليمان بن عبد الملك وكانت شرقي الأردن دساكر خلفائهم فيزيد الثاني توفي في أربد من أرض البلقاء وسكن الوليد الثاني بعياله وأمواله على ماء الأغدف من نهر الزرقاء وكان يطعم من وفد إليه ثلاثة أيام سواء كان صادراً من حج أو قافلاً من صائفة. وكان معاوية أول من أحدث ولاية العهد في الإسلام فبايع إلى ولده يزيد في حياته فأنكر ذلك نفر من الصحابة الحجازيين وامتنعوا من مبايعته لانهم ألفوا أن يكون أمرهم بينهم شورى فينتخبون الأفضل والأصلح خليفة لهم فاغدق عليهم معاوية الأموال حتى انصرف بعضهم إلى ملذات الدنيا وطياباتها وأصبحت المدينة مصدر اللهو والطرب رغماً عما في عليه من المناخ والأقليم ولكن البعض أكبر هذا العمل وجثم مستوفزاً فلما قضى معاوية هب الحسين بن علي ونزا نزوته فتوجه إلى العراق مشاقاً يزيد فقتله شمر بن ذي جوش (جد عائلة الشمامرة في قرية طلوزة) وأتى برأسه إلى دمشق فدفن فيها بباب الفراديس وقيل أنه دفن بعسقلان فبنى الملك الأفضل في خلافة المستنصر العلوي مشهد الرأس عليه ثم

نقله إلى القاهرة وبنى له مشهداً.

نشأة يزيد بن معاوية في فلسطين مع أمه ميسون بنت بحدل وكان شاعراً مجيداً فمن شعره :

دعوت نماء في إناء فجاءني غلام به خمراً فأوسعته زجراً
فقال هو الماء القراح وإنما تبدّى به خدي فأوهمك الخمرا

وبعد وفاته بويع لابنه معاوية الثاني فكان في زمنه بيعتان أحداهما إليه في الشام والثانية في الحجاز لعبد الله بن الزبير ولم تطل مدة الأول أكثر من ثلاثة أشهر فإنه لما رأى إنشعاب المسلمين وأنه عاجز عن إصلاحهم جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: "أما بعد فأني قد ضعفت عن أمركم فإبتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر أجده فإبتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فأختاروا له من أحببتم" ثم تغيب حتى مات فهذا عمل الشاب المخلص الذي انقرضت بموته الدولة السفيانية.

اضطربت الأفكار في سورية وفلسطين وأتجهت الأنظار نحو الحجاز فأجمع أمراء سورية على مبايعة ابن الزبير خلاً أمير فلسطين. وهمَّ شيخ بني أمية مروان بن الحكم ليبايعه مخافة الفتنة فنصحه عبيد الله بن زياد وهون عليه الصعب وأشار عليه أن يطلب الخلافة إلى نفسه فاستشرف إليها ونصره أمير فلسطين حسان بن مالك بن بحدل خال يزيد لأن هواه كان في بني أمية فدعا روح بن زنباع. واستخلفه على فلسطين وقال له إني أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير وهم قومي فأنا خارج إليها وأقم

أنت بفلسطين فإن جلّ أهلها قومك مـن لخـم وجـذام وسـار إلى الأردن فـأخذ بيعتهم بشرط أن يجنبهم أبني يزيد خالداً وعبد الله لصغر سنهما فثار نـائل بـن قيس الجذامي وأخرج ابن زنباع من فلسطين فألتحق بالأردن وبايع نـائل لابـن الزبير فأرسل حسان كتاباً إلى الضحاك بن قيس أمير دمشق يعظم فيه حـق بـني أمية ويذم ابن الزبير فلم يسمع منـه فذهـب إلى الجابيـة وقـابل بـني أميـة وبعـد نجوى طويلة بايعوا مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ وذهبـوا إلى الضحـاك رئيـس القيسية فحاربوه في مرج راهط وظفـروا بـه فبـايع مـن معـه مـروان وفـر نـائل الجذامي إلى الحجاز واستولى على فلسطين روح بن زنباع فتم الأمـر لبـني أميـة في سورية. ثـم توجـه مـروان إلى مصـر ففتحهـا وبايعـه أهلهـا ورجـع إلى قريـة الصبرة "السمراء" قرب طبرية فشكر حسـان وأثنـى عليـه وجـد في السـير إلى عاصـمته دمشق ثم جاء أجله بعد أن عهد بالخلافة إلى إبنـه عبـد الملـك وبعـده لعبد العزيز فاعـترضت عبـد الملـك أمـور شـاقة: ثـورات داخليـة، والخـوارج، وشيعة علي، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسة عمرو بن سعيد، فصبر عليها بعزيمـة ثابتة وهمة راجحة وذللها فأحتال على عمرو وقتله وذهـب إلى العـراق فقـاتل مصعب بن الزبير وقتله وامتلك البلاد ثم وجه سنة ٧٢هـ الحجاج بـن يوسـف بجيش إلى الحجاز ليقضي على ابن الزبـير فذهـب واحتـل المدينـة وحصـر مكـة وخربها بالمجانيق وأضر بالكعبة وقسم حراسة أبواب المسجد على البلدان فأخذ أهل الأردن باب الصفا وأهل فلسطين باب بـني جمـح وأبلـوا في ذلـك الحـرب بلاء حسناً فلما تفرق عن ابن الزبير أصحابه دخل علـى أمـه وإستشـارها هـل يسلم إلى عبد الملك ويأخذ منه ما أراد فقـالت "أنـت أعلـم بنفسـك أن كنـت

تعلم أنك على حق وإليه تدعو فأمض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت أنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وأن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا؟؟ القتل أحسن ..." فقال هذا رأيي فقالت أرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً أن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك فخرج وقتل عظيماً ومن ثم دانت البلاد لعبد الملك وسنة ٨٥هـ توفي ولي عهده عبد العزيز فعهد إلى إبنيه الوليد ثم سليمان فبايع جميع الناس ولم يتخلف إلا الخوارج والمتدينون .

(٣٨) بناء الحرم الشريف

هو أعظم آثار بني أمية في فلسطين ومن مفاخر العرب وشهود حضارتهم ونعم الأثر فإن هندسته ونقوشه وجمال تكوينه تفوق أجمل الأبنية في الشرق الأدنى .

إن المكان الذي بنيت عليه الصخرة كان مقدساً عند جميع المسلمين لأنه من أثر الأنبياء ولأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أسري إليه به ليلاً. أما أسباب بنائه فقد ذكر أنه لما عظم الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك وكان كل منهما يطلب الخلافة إلى نفسه خشي عبد الملك أن ينصرف عنهُ المسلمون ويبايعوا إبن الزبير لتعلقهم بالكعبة والقبلة فمنعهم الحج "كما قيل" فتذمروا وضجوا فرأى أن يشاغلهم ببناء هذا الأثر العظيم حتى أذا حدث ما حذر منه سلاًّهم وطيب خاطرهم به .

فكتب إلى سائر الأمصار يستشيرهم في بناء قبة على الصخرة المقدسة لوقاية المصلين من حر الشمس وبرد الشتاء ويأخذ رأيهم في ترميم جامع عمر ابن الخطاب وتحسينه. وقال أنه لا يقدم على عمل خطير كهذا دون مشورة المؤمنين فرضي جميع المسلمين واستحسنوا رأيه فاستعان بمهندسي الروم وصناعهم ورصد للبناء خراج مصر سبع سنوات وعهد بإدارة العمل إلى رجاء ابن حيوة الكندي ويزيد بن سلام فبينا أولاً قبة السلسلة الكائنة شرق الصخرة لتكون نموذجاً وخزناً فيها كل الأموال وفرغا من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى سنة ٧٣هـ وسنة ٦٩١م وقد فضل مع الوكيلين ١٠,٠٠٠ دينار فاخبرا الخليفة فسمح لهما بها مكافأة فرفضا ذلك. فأمر أن يصهر الذهب وتموه به القبة والأبواب وقد يرى الآن كتابة كوفية جميلة حول قبة الصخرة من عهد عبد الملك تدل على تاريخ البناء ولكن المأمون لما أمر بترميم المسجد تقرب إليه عماله المتزلفون فاستبدلوا اسم الخليفة الأموي باسمه وغفلوا عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة. أما الحرم الحالي فليس جميع بنائه أموياً وإنما طرأ عليه تغيرات كثيرة بسبب الزلازل والإنقلابات السياسية وكر القرون فالذين رمموا الحرم وأضافوا إليه زيادات كثيرون منهم العباسيون ففي سنة ١٤٦هـ وسنة ٧٥٥م في خلافة أبي جعفر المنصور حدث زلزال شديد فتصدع جانباً المسجد الأقصى الشرقي والغربي فأمر بضرب ما كان على أبوابه من الذهب والفضة نقوداً لينفقونها على ترميمه، وفي عهد المهدي أصابه زلزال آخر فأمر بإعادة بنائه وغير شكله فقلل طوله وزاد في عوضه ولما زار المأمون سورية وفلسطين أمر بترميم بعض بنايات الصخرة وسنة ٣٠١هـ أمرت

أم المقتدر العباسي بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوب "كالصنوبر" (يكثر في جزيرة جاوا) وسنة ٤٠٧هـ و سنة ١٠٣٤ في خلافة الحاكم بأمر الله سقطت قبة الصخرة الكبيرة وقسم كبير من سور الحرم فرممت في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي وكذلك عمرّ فيها صلاح الدين والمماليك والسلطان محمد بن قلاوون وملوك آل عثمان سليمان وعبد العزيز وعبد الحميد .. إلخ. وقد طرأ عليها وهن سنة ١٩٢٢ م وسنة ١٣٤٠ هـ واستدعي لإصلاحها المهندس التركي كمال بك وقد قدر ما يلزمها من النفقة بمبلغ باهظ جداً .

(٣٩) وقائع الدولة الأموية

أجمع المسلمون على بيعة الوليد بن عبد الملك وتخلف الفقيه سعيد بن المسيب وحاول حاكم المدينة أكراهه فلم يفلح. ولما حج الخليفة أخرجوا كل من في المسجد ولم يتجرأ أحد من الحرس أن يتعرض إليه فقيل له لو قمت قال لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه. فقيل لو سلمت على أمير المؤمنين قال لا وا لله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالخليفة في ناحية المسجد لئلاً يرأه فالتفت الوليد فرآه فقال من ذلك الشيخ أهو سعيد؟ قال عمر نعم واعتذر عنه بعجزه وضعف بصره فدار الخليفة في المسجد حتى أتاه فقال كيف أنت أيها الشيخ؟ فما تحرك بل قال بل قال بخير. فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف وهو يقول هذا بقية الناس. وفي خلافته هرب يزيد بن المهلب من الحجاج وقدم فلسطين فنزل على وهيب بن

عبد الرحمن الأزدي فأخذه إلى سليمان بن عبد الملك في الرملة وتشفع فيه ونجاه وبعد وفاة الوليد أتت البيعة لأخيه سليمان وهو في مدينة الرملة فبايعه الناس وهو على سطوح الصخرة وهمّ أن يحول عاصمته على من دمشق إلى الرملة أو القدس ثم عدل ولما إستخلف عمر بن عبد العزيز أبطل سب علي على المنابر وأمر كل العمال أن يضعوا مكانه ﴿أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1] فقال كثير:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريئاً ولم تتبع مقالة مجرم

وأمر بإنشاء الخانات في البلدان القاصية لإعالة مارة المسلمين والتعهد بدوابهم فيطعمون ويقرون يوماً وليلة ومن كانت به علة يبقى إلى أن يشفى. ولما بويع الوليد الثاني كان مقيماً في البرية فافتتح أعماله بنفي سليمان بن هشام إلى عمان انتقاماً منه بما فعله معه أبوه. وتبذل كثيراً ففسدت أحكامه وعكف على الشراب وجاهر به وإنغمس في الطرب والموسيقى وإقتناء الكلاب المطوقة بقلائد الذهب. وانتهك حرمة القرآن فأكبر ذلك العرب والمتدينون ونفر بنو أمية منه وتناحى أمراء قبائل فلسطين وأقروا على خلعه ومبايعة سواه فراودوا يزيد بن الوليد الأول فأجاب طلبهم وظل متكتماً إلى أن انتشر الوباء في الشام فخرج العباس بن الوليد إلى القسطل وأخوه يزيد إلى بادية الأردنّ وأخذ يدعو إلى نفسه ويبايع الناس سراً فعلم أخوه العباس وقال:

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠.

أنـي أعيذكـم بـا لله مـن فـتن ... مثـل الجبـال تسـامي ثـم تندفـع
أن البريـة قـد ملـت سياسـتكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وإرتدعـوا
لا تلحمن ذئـاب النـاس أنفسـكم ... أن الذئـاب إذا مـا الحمـت رتعـوا
لا تـبقـرن بـأيـديكـم بـطـونـكـم ... فـثـم لا حـسـرة تغـني ولا جـزع

وتهدد أخاه وأنذره بالسجن أو يرسله إلى الخليفة إن لم يقلع عـن عملـه. فلم يعقه هذا التهديد وسار إلى دمشق الشام خلسة وأحتلها وبايعهُ جميع أهلهـا وضبط الأموال والخزائن وتوافد عليه أعوانه فقـدم أهـالي جـرش مـن فلسـطين وغيرهم وكان الوليد على ماء الأغدف في ضياعه نافراً من الوباء فغضب وسير جنداً إلى دمشق فانضموا إلى يزيد ثم سار بنفسه فـالتقى العسـكران وأسـفرت المعركة عن قتل الوليد فحنق أهل حمص وخالفوا يزيد وبعد معركة خذلوا فيهـا بايعوا له. وقد وثب أهالي فلسطين بتحريـض سـعيد وضبعـان ولـدي روح بـن زنباع على عـاملهم سـعيد بـن عبـد الملـك فـأخرجوه وولـوا أمرهـم يزيـد بـن سليمان بن عبد الملك الذي كان سجيناً بعمان فدعاهم إلى قتال يزيد فأجـابوه لأن أهالي فلسطين كانوا ميالين لأبيه. ولما بلغ أهل الأردن ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك وأجتمعوا معهم على قتال الخليفة يزيد الثـالث فعرف بهم الخليفة وسير اليهم سليمان ابن هشام فـاطمع سعيد وضبعـان بـني روح وبذل إليهمـا المـال ومناهمـا بالولايـة فرحـلا بـأهل فلسـطين وبقـي أهـل الأردن فنهب سليمان قراهم فغضب أهل طبرية ونهبوا دواب وسلاح يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك ولحقوا بمنازلهم وبلدانهم فسار سليمان ونـزل في

قرية السمراء "قرب طبرية" فأتاه أهل الأردن وبايعوا ليزيد بن الوليد ثم ذهب إلى طبرية فصلى بها الجمعة وبايع من بها وتوجه إلى الرملة فأخذ البيعة على من بها واستعمل ضبعان بن روح على فلسطين وابراهيم بن الوليد على الأردن. ولكن هذا الإنقلاب لم يفد الأهالي شيئاً بل أطمع في الدولة الطامعين فأنكر مروان بن محمد عمل الخليفة وفظعه. ولما مات يزيد قام بالأمر بعده أخوه إبراهيم فزحف مروان إلى الشام وفتحها وبويع له ولكن المملكة كانت فوضى فخرج ثابت بن نعيم بأهل فلسطين وأتي طبرية فحصر عاملها الوليد بن معاوية بن مروان وقاتله أهلها أياماً فهزموه واستباحوا عسكره فارتد مخذولاً فتبعه القائد أبو الورد وهزمه ثانية فتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان واستعمل الخليفة على فلسطين الدماعص بن عبد العزيز الكناني فظفر بثابت وبعثه إلى مروان فأمر به وبأولاده الثلاثة فقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا. فامتعض أهل حمص وخلع سليمان بن هشام مروان وبعد معركة انخذل جيشه وهزم وظلت البلاد في قلاقل إلى أن أعلنت الدعوة العباسية واصطدم الجيشان العباسي والأموي في وقعة الزاب "قرب الرقة" العظيمة التي هدم بها ملك وقام ملك فجالد بنو أمية حتى خروا صرعى وكان أحد شبانهم يتمثل :

أذل الحياة وكره الممات وكلاّ أراه طعاماً وبيلاً
فأن لم يكن غير أحداهما فسير إلى الموت سيراً جميلاً

وفر مروان بن محمد إلى فلسطين فنزل نهر أبي فطرس "العوجاء" فوجد

الحكم بن ضبعان الجذامي قد تغلب عليها. فاستجار بعبد ا لله بن يزيد بن روح الجذامى فأجاروه ولكن عبد ا لله بن على كان يقفو أثره ففتح دمشق وجاء إلى فلسطين فنزل على الأدن ثم بيسان ومرج الروم. فلقيه أهل الأردن وقد سوّدوا فأتى نهر أبي فطرس وأقام فى فلسطين وأرسل بعوثاً إلى مصر خلف مروان بقيادة صالح بن على فحاربوه وقتلوه فى قرية أبو صير أما عبد ا لله على فانُه تتبع أولاد الخلفاء ووجهاء بنى أمية فقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك وأسر من وجدهم وبطش فيهم فقتل ٨٣ رجلاً على نهر العوجاء فخاف أعوان بنى أمية فبيَّض حبيب المريّ أحد قواد مروان وفرسانه وخلع بيعة بنى العباس ووافقه أهل حوران والبلقاء والقيسية وبعد قتال أخذ الأمان لنفسه ولقومه ثم انتقض أهل حمص وبعد محاربة أخفقوا فيها دخلوا فى الطاعة وبيّض أهل دمشق فعاد إليهم فثابوا إلى رشدهم بلا قتال وبيّض أهل الجزيرة وقادهم إسحق بن مسلم العقيلي وهو يقول في عنقي بيعة لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات فلما تيقن أن مروان قتل طلب الصلح والأمان. فانتقال الحكم من دولة إلى دولة أو نزعه من يد إلى يد ليس بالأمر السهل بل يعقبه انقلابات وثورات عقلية واجتماعية كبيرة وخطيرة.

لم ينفع تعصب مروان إلى النزارية فأنهم خذلوه لما غلب على ملكه فوثب أهل قنسرين بساقته وخانه الحارث بن عبد الرحمن الحرشي فنى دمشق ووثب به هاشم بن عمر العنسي والمذحجيون فى شرقى الأردن وعندما مر بفلسطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع واستقبل جميع القوم والحكومة الجديدة بكل ترحاب.

(٤٠) محدثات بنى أمية وميزاتهم

كانت دولة بنى أمية عربية لتعصب للعرب وتحتقر سواهم فرغب ملوكها فى الحضارة ولم يجمدوا ونسوا البداوة وسارعوا إلى اقتباس ما حسن عندهم وتكيفوا بحسب الأحوال فأحدثوا ولاية عهد الخليفة وهو حي وقسموا إدارة البلاد إلى أمصار وكل مصر إلى أقسام. فالشام حاضرة وأمصارها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين.

ومن آثارهم المجيدة فى فلسطين قبة الصخرة وأطلال سرايا سليمان بن عبد الملك فى الرملة مكان دار الحكومة اليوم وأشياء زهيدة أعرضنا عنها لقلة أهميتها. لم تعمر الدولة الأموية طويلاً وعجل على سقوطها أسباب هامة منها:

(١) تعدد ولاة العهد فى آن واحد فكانوا يتنافسون فى الخلافة فينبت الشقاق بينهم ويطمع كل واحد فى الوصول إليها ومن نالها سعى بخلع أخيه أو ابن عمه ليحرمه منها ويورثها بنيه فيمتنع الثاني ويقضي امتناعه إلى العداء والتنازع فتشعب الآراء وتفسد البلاد.

(٢) العصبية الجاهلية فقد نبضت فى وقعة مرج راهط وانشطر العرب إلى قيس ويمن وتأجج نارها فى خراسان فكان كلما تعين وال من حزب يقضي على الحزب الآخر.

(٣) ميل بعض الخلفاء ورغبتهم فى طمس آثار السلف كما فعل سليمان بن عبد الملك بقواد أخيه الوليد حتى خثرت النفوس الطامحة وفترت الهمم النازعة وضعفت آمال الأمراء بخلفائهم ولم يخلصوا لهم فثارت البغضاء

ونما الكـره فى صـدور الأمـة فـانتكثت الوحـدة وانقسـمت المملكـة إلى حزبين سياسـيين لاهـمَّ لأحدهمـا إلا القضـاء علـى الآخـر وتغـاضوا عـن الدعوة العباسية التى كانت تنتشر بنشاط وسرعة.

(٤) احتقارهم الأعاجم والحط من قدرهم مما جعلهم يحقدون على هذه الدولة لما لحقهم من الـذل والصغـار فكـانوا يلتفـون حـول كـل ثـائر ليضعفوهـا ويهدموها ويبنوا غيرها عله يكون لهم فيها حظ وافر.

(٥) تولية الخلافة لغلمان ليسوا أكفاء فى العقل والتدبير وسياسة الدول.

(٦) انتشار "البروباغندا" بأن أهل البيت هم أهل الملك وبنو أمية مغتصبوه.

(٧) انفصال أجزاء المملكة عن بعضها البعض فوسائط النقل قليلـة والمخـابرة بعيدة والتجنيد بسيط وأطراف المملكة ممتدة فإذا حـدث فتـق فـى الهنـد كان لايصل خبره إلى الام إلا بعد شهور فلو جهزوا اليها حملة لمـا وصلتـه إلا بعد سنة فصعب عليهم ضبط الثغور لعـدم ارتبـاط العاصمـة بهـا. أمـا القبائل التى سكنت فلسـطين والأردن فكثـير منهـا دذام التـى نبـغ منهـم موسى بن نصـير فـاتح الأندلـس وروح بـن زنبـاع وبقايـاهم بنـى صـخر والعطاونة فى الكـرك، ولخـم ومنهـم بـني عقبـة فـى التياهـا والمسـعودي، وتنوخ ومنهم عرب السردية والفحيلي في تل كلخ، وغسان وبهراء وبلي ومنهـم البلاونـة فـى بنـى صعـب والسـبع وغـور بيسـان وكلـب ومنهـم الشرارات. وقضاعة ومنهـم العزازمـة. بكـر، السكاسـك، قيـس، الأزد، تغلب، طي.

(٤١) بعض أبطال الدول الأموية

١- معاوية بن أبى سفيان

هو رأس الدولة الأموية وباني أركانها. كانت تلوح عليه مخايل الشجاعة من صغره فمر به رجال فقال أحدهم "سيسود هذا الغلام قومه" فقالت أمه هند "ثكلته أمه ان لم يسد غير قومه". اختاره النبى ﷺ لكتابة وحيه وعيّنه أبو بكر قائداً فى فتح سورية وأمّره عمر ففتح قيسارية وعسقلان ويافا واسترجع أكثر البلاد الساحلية بعد أن كر عليها الروم ثانية فى أواخر خلافة عمر، وظل يترقى إلى أن استوثقت له أحكام سورية وفلسطين ثم بويع بالخلافة فصانع رؤساء العرب وداراهم وترضاهم ونظم البريد وقسم الطرق إلى منازل وجهزها بالرجال والدواب لاستلام مايردهم وايصاله إلى من بعدهم ولقد أحدث السياسة والتساهل فى الأحكام الشرعية فاتخذ الحرس وأنشأ أبهة الملك وعمل ديوان الخاتم" تغليف الرسائل" وأنشأ أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ١٧٠٠ قطعة ورتب له أميراً وجعل يغزو الروم براً وبحراً وحصر القسطنطينية وكاد يفتحها لولا النار الأغريقية ورأى تطلع الناس إلى الخلافة وخاف حدوث الفتنة فبايع لأبنهِ يزيد وأحدث ولاية العهد وتبعه من بعده وكان يقول لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت إذا شدوها أرخيتها وان أرخوها شددتها . وكان عمر بن الخطاب يقول تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية ومن قوله "أنى لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي وجهل أكبر من حلمي وعورة لا أواريها بستري وأساءة أكثر من أحساني" وقال أحب

الناس إلىَّ أَشدهم لي تحبباً إلى الناس.

وقد كتب إلى علي بعد وقعة صفين "أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض وأنا وإن كنا غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا مانرد به مامضى ونصلح به مابقى وقد كنت سألتك على أن لا تلزمني لك طاعة وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فأنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ولا تخاف من القتل إلا ما أخاف وقد وا لله رقت الأجناد وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ويسترق به حرٌّ والسلام".

٢- الحجاج بن يوسف "كليب"

هو من قبيلة تقيف كان معلم مكتب الطائف ثم التحق بروح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك إلى أن فسد جند الخليفة فأَصبحوا لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فأشار عليه روح بتولية الحجاج أَمر العسكر فقلده إياه فألزم الجيش الطاعة وجبرهم على محافظة النظام فتأَخر يوماً أَعوان روح بن زنباع فجاءهم وهم على الطعام فوقف عليهم وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين فقالوا له انزل يا ابن اللخناء فكل معنا فقال لهم هيهات ذهب ذلك. ثم أَمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّفهم فى العسكر وأحرق فساطيطهم ففزع روح إلى عبد الملك وشكاه فقال له عليَّ به فلما دخل قال له "ماحملك على ما فعلت" فأجابه أنا مافعلت بل أنت فعلت إنما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين

وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدّمني له فأعجب به وتقدَّم في منزلتـه وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

حـارب ابـن الزبـير وآلى أن لايشـلح السـلاح ولا يُطقطـق النسـاء ولا يتطيب حتى يظفر به وحصره ورمى الكعبة بالمنجنيق فارعدت السـماء فـأعظم ذلك أهل الشام فأخذ الحجارة ووضعها بيده فى المنجنيق ورمى بهـا وقـال "يـا أهل الشام لاتنكروا هذا فانيّ ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر" لما عين عاملاً على تبالة فى اليمن ذهب وسأل عنها فقيـل لـه أنهـا خلـف هـذه التلعة فرجع قائلاً لابارك ا لله فى مدينة تسترها ذروة.

ولما شمخ أهل العراق وخشنوا عين إليهم فذهب باثنى عشر راكباً ودخل الكوفة وبدأ بالمسجد فصعد المنبر وأعلن الحكم العـرفي بخطبتـه المشـهورة التـى منها:

يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤساً قد أينعت وحـان قطافهـا وإنـي لصاحبهـا وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحـى ... إلخ وانسـاق لـه العـراق وبنـى مدينة واسط التى دفن بها وهو من الذين وطـدوا الملـك لبـني مـروان وأخبـاره طويلة يرجع إليها فى المطولات. فهو بالاجمال مـن أعظـم قـواد الفتـوح وو لاة البلاد والجيوش.

٣- موسى بن نصير اللخمي

كان شجاعاً تقياً لم تهزم له رأية وليّ إفريقيـة فصـرف همتـه فـى تعريـب البربر وإدخالهم فى الديـن الإسـلامي فغزاهـم وقهرهـم وأتم بلادهـم فتحـاً ثـم

أرسل مولاه طارقاً إلى الأندلس فاجتاز البحر ثم حرق السفن وخطب قائلاً "أين المفر !! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم وا لله إلا الصدق والصبر وأعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشهِ وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم غير ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم" ثم لحق به فأكمل البلاد وتم له النصر ونقل الدين الإسلامي إلى قارة أوروبا ولكن سليمان بن عبد الملك قابل أعماله الجليلة بالاساءة والكفران فعزله عن جميع أعماله وحبسه وأغرمهُ مالاً كثيراً. ومن قواد الأندلس عبد الرحمن الغافقى الذى اخترق جبال البيرينيه وأوقع بالأفرنسيين فى سهول بواتيه وكانت هذه المعركة الفاصلة لتقهقر العرب من الأندلس بعد حين .

(٤٢) الدعوة العباسية

لم يقم من بنى العباس من يطالب بالخلافة ولم تطمح أنظارهم إليها فنسيتهم الأمة ولم يتبع لهم أحد فقضوا أوقاتهم بمعزل عن الحركات السياسية حتى سنة ١٠١هـ إذ وفد عبد ا لله بن محمد بن الحنفية على الخليفة سليمان ابن عبد الملك فخافه وأرسل إليه من سمه فى الطريق فلما قصد الحميمة(*) قرية محمد بن على العباسي عاذ به العلوي وبايعه وعهد إليه بالخلافة ومن هنا أبتدأت الدعوة العباسية. وقد تطورت فى دورين، الأول دور الدعوة وهو من

(*) هى الحمة عند طبرية على الطريق الحجازي والعراقي. كانت قرية حقيرة أقطعها الوليد بن عبد الملك إلى محمد بن علي بن عبد ا لله عباس وأسكنه أياها.

سنة ١٠١هـ – سنة ١٢٩هـ. نشرت فيه محبة آل البيت ومساوئ بنى أُمية بتأن وتريث والثاني دور العمل وفيه أعلنت الدعوة وجُهر بها.

عرف العباسي أن كل محاولة فجائية يعقبها الخسران وأن هدم الدول وتأسيسها ليس بالعمل السهل وخشي أن هو أعلن اسمه أن ينفض من حوله دعاة العلويين فكتمه وأمرهم أن يدعوا إلى الرضى من آل محمد فقط ووجههم إلى خرسان فأسسوا جمعية سرية ذات فرعين الفرع الأول النقباء وهم اثنا عشر والفرع الثانى المبشرون وهم سبعون رجلاً يطوفون البلاد ويثيرون الناس ضد بنى أُمية واتخذوا موسم الحج مؤتمرا عاماً يتداولون فيهِ الآراء وكانوا كلما اعترضتهم عقبات ذللوها حتى سنة ١٢٠هـ فعظم الخلاف بين المضرية والنزارية فتنفست الشيعة وجدّت في أمرها، وفي سنة ١٢٩هـ أعلن أبو مسلم الدعوة ولبس هو ومن معه السواد شعار العباسيين ونشروا الرأيات السود "الظل والسحاب" فعرف بهم نصر بن سيار فكتب إلى مروان بن محمد يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكو ... وان الحرب مبدؤها كلام
فان لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أيقاظ أمية أم نيام

فأجابه اقطع هذا الثأْلول ولم يعبأْ بهِ. أما أبو مسلم فأَخذ يتقدم ويفتح البلدان ويرسل قواده فيستولون بسرعة على إقليم بعد إقليم حتى استوثقت له خراسان ولا أحد يعلم لمن هى الدعوة إلا المبشرون بها إلى أن وقع كتاب

إبراهيم الإمام فى يد الخليفة مروان فأرسل إلىالوليد بن معاوية بـن عبـد الملـك عامل دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحمة من يأخذ إبراهيم بن محمد ويرسله إليه ففعل وأخذه من مسـجد القريـة وهو ملفف وحمل إلى الوليد فبعث به إلى موان فحبسهُ فى حرَّان فأثبت وصيتـه إلى أخيه أبى العباس السفاح ودفعهـا إلى مـولاه سـابق الخوارزمـي وأوصـاه أن يقوم بالدولة وأن لا يلبث بالحمة بل يتوجه إلى الكوفة فأخذ أبـو العبـاس أهـل بيته وسار إلى الكوفة وسنة ١٣٢هـ ظهر أبو العباس ولقب بالسـفاح وأخـذت له البيعة علناً فى المسجد من الصباح حتـى جنهـم الليـل وظـل نجمهـم يشـرق ونجم بنى أمية يغور حتى قتل مروان وملكوا جميع الأقطار.

ومـن تـأمل فـى فـوز العباسـيين وهـم جمعيـة بسـيطة علىبـني أُميـة وهـم أصحاب الحكومة والدولة والجند والخراج يأخذه العجب ويسـتغرب كيـف تم لهم ذلك ولكن لو عرف أن هذه الجمعية كانت منظمة ورجالهـا مخلصـون وأن كل جديد مقبول وكل قديم منفور لزال عجبه واستغرابه.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الفصل السابع

(٤٣) فلسطين عباسية

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى "ﷺ" وهم الذين نهضوا على بنى أمية فاستأصلوا دولتهم من الرق وبنوا دولتهم على أنقاضها فأخضعوا العصبية العربية وأذلوا مضر وعززوا نفوذ الأعاجم الذين استبدوا بالأحكام فأصبحوا هم الملوك والعرب أسراهم.

تشكلت الدولة العباسية وبعثت ولاتها إلى الأمصار فكان والي سورية وفلسطين عبد الله بن علي ثم ضمت الأردن إلى دمشق وتعين صالح بن علي حاكماً على فلسطين والبلقاء تحت إمرة عبد الله بن علي وكلاهما عباسي فظل تابعاً له حتى خرج عبد الله على المنصور وغُلب فتعين صالح إلى مصر.

وقد امتازت الدولة العباسية عن سواها باقبالها على العلم وترجمتها الكتب العلمية والفلسفية ونشرها فى الأقاليم وتحسين المعارف ومساعدة المؤَلفين وإدرارا النفقات عليهم وتشويق الأدباء وتشجيعهم الناس للاقبال على حرفة الأدب ... إلخ.

وقد عامل هارون الرشيد نصارى فلسطين معاملة حسنة فسمح للامبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة وبجانبها دير يأوي إليه زوار اللاتين. وفى سنة ٧٩٦م اهدى إلى شرلمان ساعة وفيلا وأقمشة نفيسة وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة

وتعهد إليه بحماية حجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس.

وفى زمن خلافتي المأمون والرشيد زهت الدولة العباسية وأضاء عصرها الذهبي سياسة وآداباً وعلماً لأن مملكتهما امتدت من الأندلس وشمال إفريقية إلى شمال البحر الأسود والصين ونصف الهند ومن جزيرة العرب إلى حدود أنقره فكثر العلماء والأدباء فى أيامها وترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والجغرافيا الخ. فكانت بغداد مهد الأدباء والعلماء وعش الجامعات ومعارض الكتب والمكاتب.

وفى سنة ١٨٦هـ هاجت فتنة بدمشق بين المضرية واليمانية وسببها أن رجلاً من بنى القين خرج بطعام له يطحنه فى الرحى بالبلقاء فمر بمقشأة لرجل لخمي فتناول منها بطيخه فشتمه صاحبها فتضاربا وانحاز لكل منهما قومه فكبر الخطب وقتل رجل يمني وتداولوا الصلح بينهم فأبى اليمانية وجمعوا أمرهم وغزوا بنى القين فقتلوا منهم ٣٠٠ شخص فثاروا واستنجدوا قيساً فأجابوهم وساروا معهم إلى الصواليك من أرض البلقاء فقتلوا ناليمانية ٨٠٠ شخص فتخربت الحكومة إلى اليمانية وساعدتهم فانتصر عليهم أبو الهيذام زعيم المضربة وفرق جموعهم. وفى سنة ١٧٧هـ استعلت عليه الحكومة وبددت جمعه فنامت الفتنة ثم هاجت ثانية فتلافاها الرشيد وأصلح بينهم.

وقد أقطع المأمون أخاه المعتصم "أبا إسحاق" الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن وفلسطين ٤٠٠٠ جندى يقدمونها لغزو الصائفة وقطع للفارس ١٠٠ درهم راتباً شهرياً وللراجل ٤٠ درهماً. وفى سنة ٢٢٧هـ سنة

٨٤٢م خرج أبو حرب المبرقع على المعتصم واعتصم بجبال الأردن. وسبب مخالفته أن بعض الجند أراد النزول فى بيته وهو غائب فمنعتهُ امرأته فضربها الجندي بسوط فأصاب ذراعها، فلما رجع إلى منزله شكت إليه ما فعل بها الجندى فختراط سيفهُ وقتله ثم دعا رؤساء قومه فاستجابوا له والتفوا حوله ومنهم ابن بيهس المطاع فى قومهِ فأرسل إليه المعتصم رجاء بن أيوب الحضاري بجيش زهاء ألف رجل. فلما رآه فى عالم كثير كره مواقعته وتربص حتى جاء موسم الزراعة فانصرف من معهُ من الزراع إلى أشغالهم وبقى فى نفر قليل فناجزه رجاء ثم أخذه وابن بيهس اسيرين.

ومن أمعن النظر فى هذه الثورة وجد أن سببها الظاهرى غير كاف لاعلانها لأنهُ ليس من السهل أن يدعو الناس رجل بسيط فيلبيهِ جمع غفير ويحارب لأجله الحكومة ذات الحول والطول ولكن الحقيقة هى أن الخليفة المعتصم استكثر من الجنود الأتراك فعبثوا بعادات البلاد وطبائع أهلها فسخط العرب على الخليفة وحكومته تعصباً وغيرة إلى أن نهض أبو حرب فشجعوه ونصروه فلو لم تكن الغاية واحدة والكره مستحكماً فى نفوس الجميع لما اتفقوا على خلع طاعة المعتصم الجاني على العرب والحكومة العباسية باستكثاره من أخواله الآتراك فى بلاطه ومنحهم السلطة الواسعة حتى تحكموا فى الدولة واستبدوا بالملك واستأثروا بالأموال فكان منهم الجند والقواد والولاة وأصبح العرب وهم أصحاب البلاد غرباء والأتراك وهم الدخلاء حكام البلاد.

وفى سنة ٢٥٢هـ عقد لعيسى ابن الشيخ سليل الشيباني على الرملة فأنفذ خليفته أبا المغراء واستولى على جميع فلسطين وتغلب على دمشق وأعمالها واستبد بالأموال وقطع ماكان يحمل للخليفة. فذهب سنة ٢٥٦هـ إليه اما جور وقتل ابنه منصوراً وأخذ منهُ ودمشق. ولم تدم عظمة الدولة العباسية طويلاً لأنها أسست من عناصر مختلفة متباينة الميول والطبائع والأخلاق فاستهوى الخلفاء مواليهم ورقوهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير فلم يخلصوا إليهم ولم يرعوا هذه النعمة ولم يحفظوا ذاك الجميل وأنكروا حسن الولاء فسلبوا الخلفاء أبهة الملك وجلالته وسيطرته وأبقوا اسمه فأصبح الخليفة آلة في يدهم محدود النفوذ محجوز الإرادة ضعيف القوة فإذا ما حنقوا منهُ أو توسموا فيه الحزم أو النزوع إلى الاستقلال خلعوه أو سملوا عينيه وقد شعر المتوكل بنفوذ الأتراك والأعاجم فهم بنقل العاصمة من بغداد الفارسية التركية إلى دمشق العربية تخلصاً من جورهم وفراراً من غطرستهم فأنشده يزيد المهلبى:

أظن الشام تشمت بالعراق ... إذا عزم الامام على انطلاق

فان تدع العراق وساكنيها ... فقد تبلى المليحة بالطلاق

وقيل أنهُ استوبَا دمشق وتركها فرجع إلى العراق والأصح أنهُ خشى نفوذ الأتراك وتخوف أن يخلعوه ان لم يدارهم فصدق ظنه وقتلوه فى بغداد وقد تمادوا فى العسف والاستبداد فاحتقروا الخلفاء واستصغروهم وسلبوهم حريتهم الشخصية حتى قال الشاعر:

خليفـــــة فـــــى قفـــــص بـــــين وصيـــــف وبغـــــا
يقول ما قالا لـــــــــــــه كما تقول الببغـــــــــــــا

وقد شددوا فى الحجر علـى الخليفـة المعتمـد فكـان يطلـب الدرهـم فـى خزانته فلم يجده فقال:

أليـس مـن العجـائب أن مثلـي يرى ما قل ممتنعاً عليـــــــــهِ
وتجبى باسمه الدنيا جميعـــــــاً وما من ذاك شئٌ في يديـــــــه

ومن تبصر قليلاً ورأى كيف أن الدخيل ينزل البلاد معدما لايملـك شـيئاً فيمتص الدماء ويختلس الأموال ثم يحكم الرقـاب عـرف أن كـل أمـة لاتسـهر على مستقبلها ولا تحافظ على كيانها فمصيرها إلى الدمار.

الفصل الثامن

(٤٤) الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤هـ - سنة ٢٧٠هـ أو سنة ٨٦٨ م - ٨٨٣م.

تنتسب هذه الدولة إلى طولون الغلام التركي الذى أهداه نوح بن أسد الساماني عامل بخارى إلى المأمون فلم ينل ملكاً ولكن ولد له غلام فسماه أحمد وقيل أنهُ تبناه ورباه تربية عربية.

وقد نشأَ عظيماً يتقن اللغة العربية كأبنائها وساعده استعداده الفطري وسما به جده فقدم مصر نائباً عن الأمير باكباك ودفعته مقدرته السياسية إلى أن صار والياً لمصر فسعى إلى الاستقلال الداخلي وأكثر من الجند والحشم وقرب العلماء والقراء وبنى جامع ابن طولون فى مصر، ورتب الصدقات والمبرات فاستمال الناس واجتذب قلوبهم ولما علم وتيقن أن الدولة العباسية ضعيفة وقد انهكتها غارات الثوار الداخلية وفتنة الزنوج العظمى طمع فيها وقطع ارسال الخراج إلى الخليفة المعتمد غير وجل واعتز بنفسه فأغار على فلسطين سنة ٨٧٨م وضمها إلى دولتهِ وعين والياً للرملة. فاتسع ملكه حتى جاوز نهر الفرات وبنى قلعة يافا القديمة وحاول الاستيلاء على مكة فلم يفلح ثم قطع خطبة ولي العهد الموفق لمنافسة كانت بينهما فأمر الموفق أن يلعن على المنابر وحذف اسمه من الخطبة واعتبره خارجياً. وفى عهد إمارته سكنت البلاد من القلاقل إلى أن توفى سنة ٨٨٤م وسنة ٢٧٠هـ وولى الأمر بعده ابنه خمارويه

وفي سنة ٢٧١هـ كانت موقعة الطواحين على نهر روبين(*) فانتصر المعتضد أولاً وهرب خمارويه وبينما كان جنده منهمكاً بنهب السواد خرج عليهم الكمين ووضع فيهم السيف ففر المعتضد وظل الجيشان يضطربان وليس لواحد منهما أمير فانجلت المعركة عن خذلان العراقيين واستظهار المصريين.

فذهب البشارة إلى خمارويه وهو في مصر فسرَّ كثيراً وبعد ذلك صالح الخليفة وتوثقت العلائق بينهما فقلده أحكام مصر والشام وحدود الروم بشرط أن يدفع ٤٥٠ الف دينار سنوياً ويترك العواصم وقنسرين. وقد تقرب للمعتضد فقدم اليه هدايا ثمينة وعرض عليه أن يزوج ابنته "قطر الندى" بابنه فقبلها الخليفه لنفسه وجهزها أبوها بجهاز عظيم أسرف فيه وانفق من الأموال ما أضعف ماليته فأساء إلى الأهالي ونفرهم فقتل في الشام ذبحاً ودفن في مصر سنة ٨٩٦م وسنة ٢٨٢هـ وتعاقب على البلاد أبناء بني طولون فلمْ يرو لهم عمل مبرور أو شر مذكور وسنة ٩٠٥م وسنة ٢٩٢هـ انقرضت مملكتهم وأخرجهم محمد بن سليمان من مصر والشام وفي سنة ٢٩٣هـ كان عامل دمشق والأردن وفلسطين أحمد بن كيغلغ فذهب إلى مصر فحاربة إبراهيم الخليجي وأناب عنه في الأردن يوسف بن إبراهيم بن بغا فاغتنم القرامطة هذه الفرصة وساروا إلى بصرى وأذرعات [أذرع](**) فافحشوا في النهب وأثخنوا فقتلوا نائب البلاد يوسف ونهبوا طبريا وعاثوا في الأرض فساداً فأنفذ الخليفة

(*) لم تزل أثار الطواحين هناك وقد وهم من ظنه نهر العوجاء.

(**) يوجد ثلاث بلاد متشابهة الأسماء وهي: أذرح جنوب الكرك، أذرع ذرعاه، أذرعات أزرع.

حسين بن حمدان إلى مقاتلتهم فانسحبوا إلى البادية وكانوا يغوّرون الماء خلفهم حتى لا يستطيع الجيش أن يتعقبهم لقلة المياه.

(٤٥) الدولة الأخشيدية سنة ٣٢٣هـ - سنة ٣٣٤هـ (٩٣٤م)

أخشيد لقب ملوك فرغانة فى تركستان ومعناها ملك الملوك. مثل تبع اليمن وإمبراطور وملكشاه وقيصر وكسرى ...

أما مؤسس الدولة الأخشيدية فهو طغج بن جف من سلالة ملوك فرغانة القدماء كان من مماليك المعتصم فاقطعهُ محلاً فى (سرّ من رأى)[1] وبعد وفاته اتصل ابنه طغج بلؤلؤْ غلام ابن طولون. ثم عرفه أبو الجيش خمارويه فأعجب به وقلده دمشق وطبرية. فلما قتل أبو الجيش عاد طغج إلى المكتفى فوشى به وزير الخليفة العباس بن الحسن لأنهُ أبى أن يتزلف إليه فأمر الخليفة بسجنهِ إلى أن قضى نحبه ثم هرب ابنه محمد إلى الشام واتصل بأبي منصور تكين الخادم. فأظهر مقدرة وهمة ودهاء فلقده عمان وجبل الشراة وتدرج فى الرئاسة فعين حاكماً للرملة سنة ٣١٨هـ وسنة ٩٢٧م. ثم نقل إلى دمشق فسر بهِ الخليفة القاهر وولاه مصر سنة ٣٢١هـ فمكث بها برهة قصيرة وصرف عنها ثم أُعيد إليها فى خلافة الراضي وعهدت إليهِ أعمال مصر جميعها فعزل عنها أحمد بن كيغلغ ومنحه الخليفة صلاحية واسعة فصار أشبه بملك مستقل وسنة ٣٢٨هـ استولى ابن رائق[2] على دمشق وتوجه إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر

---

(١) مدينة فى العراق تدعى سامراً.

(٢) حاكم حران وقنسرين والعواصم.

فصادمه الأخشيد وهزمه فارتد إلى دمشق بأقبح صورة فتعقبه أخو الأخشيد أبو نصر بن طغج بجيش كثيف فاعترضه ابن رائق واقتتلوا على عين اللجون[1] فقتل أبو نصر وانهزم عسكره فأخذ ابن رائق وكفنه وحمله إلى أخيه الأخشيد بمصر وأنفذ معه ابنه مزاحم وأصحبه بكتاب يعزّيه بأخيه ويعتذر عما جرى ويأسف على ما حدث ويحلف أنهُ ما أراد قتله وقد قدم ابنه ليقتص منه فتلقى الأخشيد مزاحماً بالجميل وخلع عليه وردَّه إلى أبيه واصطلحا على أن تكون الرملة وما وراءها للأخشيد وباقي فلسطين والشام لابن رائق بشرط أن يحمل إليه الأخشيد عن الرملة ١٤٠ الف دينار سنوياً.

وفي سنة ٣٣٠هـ هب الأخشيد من مصر لفتح دمشق فاستأمن إليه عاملها محمد بن يزداد فنقله إلى شرطة مصر وأناب بها بدر الخرشني. وفي سنة ٩٤٣م سنة ٣٣٢هـ قلد الخليفة الأخشيد إمارة الحجاز وسنة ٣٣٤هـ ٩٤٦م توفي بدمشق ودفن بالقدس وولى الأمر بعده أبنه أبو القاسم أنوجور "محمود" فاستضعفهُ سيف الدولة وقصد دمشق فملكها وأساء إلى أهلها فخابروا كافوراً وصى الأمير فجهز جيشاً عرمرماً وسار لمحاربة سيف الدولة فتصافا قرب الرملة وبعد جهد انهزم سيف الدولة واسترجع كافور دمشق وفلسطين.

كان أبو القاسم صغيراً وخادمه كافور وصيه فغلب عليه وتفرَّد بالولاية ورشح نفسه للملك فقصده الشعراء ومدحه المتنبي بقصائد فائقة منها:

---

(١) ماء يبعد عن جنين ساعتين ونصف.

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت وكان قليلاً من يقول لها اقدمي
أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم

وكافوريات المتنبى من خيرة عره فقد أجاد فيها آملاً أن يوليه اقليماً فلم يظفر به وقد أشار بعضهم على كافور ليمنحه اقطاعاً فقال حسبكم أن من يدعي النبوة مع محمد إلا يدعي الملك ع كافور.

أن من يطلع على تاريخ حياة كافور ويعرف كيف استوى على عرض مصر وسورية تحدثه نفسه بكل عظيمة. كان كافور عبداً زنجياً خصياً فأشتراه الأخشيد بثمانية عشر ديناراً وقدمته نفسه الكبيرة وشخصيتهُ البارزة إلى أن أصبح قائداً مشهوراً ثم عين وزيراً لأنوجور ومدبراً لمملكتهِ فساس الحكومة بإدارة قويمة ورأي سديد.

فلما توفي أنوجور تولى الملك بعده أبو الحسن ولم يك له من الأمر إلا اسمه وبعد أن مات استقل كافور بمصر وتلقب بالأخشيدى فقلد ولاية مصر وسورية والحجاز وتوفى سنة ٣٥٦هـ وسنة ٩٥٦م ودفن في القدس فضعفت الدولة الأخشيدية بعده واستولى جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمى على مصر وانتزعها من يد أبي الفوارس الأخشيدي وأنهى الدولة الأخشيدية بعد أن عاشت ٣٤ سنة.

وقد امتدح المتنبى ولى عهد أبى الفوارس بقصيدة عصماء منها:

فمـالى والدنيـا طلابـــي نجومهـا ومسعاى منها فـى شـدوق الأراقـم
من الحلم أن تستعمل الجهـل دونـه إذا اتسعت فى الحلـم طـرق المظـالم
ومـن عـرف الأيـام معرفتـى بهـا وبالنـاس روّى رمحـه غـير راحـم
فليس بمرحوم إذا ظفروا بـــه ولا فى الردى الجاري عليهم بآثـم

***

إذا صلـت لم أتـرك مقـالاً لفـاتك وان قلـت لم أتـرك مقـالاً لعـالم
والا فخـانتني القـوافي وعـاقني عـن ابـن عبـد ا لله ضعـف العزائـم
حمته على الأعداء مـن كـل جانب سيوف بنى طغج بن جف القمـاقم
هم المحسنون الكر فى حومة الوغى وأحسـن منـهُ كرهـم فـى المكـارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنـب ويحتملـون الغـرم عـن كـل غـارم
حيون إلا أنهم فى نزالهـــم أقل حياء من شفار الصـــوارم

(٤٦) بعض أبطال الدولة العباسية

جاءت الدولة العباسية والحكم ممهد فلم تحتج لتوسـيع حدودهـا أو نشـر لغتها إنما اقتصرت على هدم الحكومة الأموية وبناء دولتهم مكانها وهـو عمـل صعب شاق تذل امامه أعناق العظماء وقد قـام بـه أقطـاب عظمـاء نذكـر هنـا بعضهم ..

(١) أبو مسلم الخراسانى

اسمه عبد الرحمن من ذرية بزرجمهر. نشأ فى حضن عيسى بن معقل وكان

يختلف مع ابنهِ إلى المكتب فظهرت نجابته وتفوّقه من صغره واتصل بالنقباء العباسيين فعجبوا بمعرفتهِ وأدبهِ وأخرجوه معهم إلى مكة وعرجوا إلى الحميمة "عش الدعوة العباسية" فأهدوه إلى الإمام وانصرفوا فلما رجعوا ثانية سألوه رجلاً عاملاً يقوم بأمر خراسان فقال أنى جربت هذا الأصفهاني ظاهره وباطنه فوجدتهُ حجر الأرض فقلده الأمر وأرسله إلى خراسان فبث الدعوة ونظم الادارة ثم وثب وحارب قواد مروان وبايع للسفاح فصفت له خراسان وقال:

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت ... عنهُ ملوك بني مروان إذ حشدوا
مازلت أسعى بجهدي فى دمارهم ... والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً فى أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

ولما أمَّحت دولة بنى أمية وأسست دولة بنى العباس طمع أبو مسلم فى الخلافة وطلب إلى السفاح أن يسمح له بالحج آملاً أن يوليهُ امارته ولن يتولاها آنذاك إلا ولي العهد فأذن له السفاح بالحج واعتذر إليه إن قد سبق فوليت إمارة الحج إلى أخى المنصور فحقد أبو مسلم وحج مع المنصور وكان لا يأتمر بأمره ولايسير خلفه ويتقدمهُ فى الرحيل وبذل فى موسم الحج أموالاً طائلة فحبب إليه قلوب العرب واستمالوا وادعى أنهُ عباسي من ذرية سليط بن العباس وكان يبدأُ فى مخاطبة المنصور ومكاتبتهِ بنفسهِ وخطب عمته آسية واستخف بالنصو فاحفظهُ واحنقهُ إلا أنهُ كظم غيظه حتى توفى السفاح وخلع عبد ا لله بن على فأرسله المنصور إلى محاربته فذهب إليه وقضى على جيشه

وحاول المنصور أن يصرفهُ عن خراسان اتقاء عصيانه فأبى فاحتال عليه وقتله ثم استشار مسلم ابن قتيبة فى أبى مسلم فقال له الآية ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1] ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور وقال له ما تقول في أمر أبي مسلم؟ إن كنت أخذت منهُ شعرة فاقتل ثم اقتل فأراه أياه فى البساط قتيلا فقال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك.

(٢) عبد الله بن علي

هو عباسي الأصل عم المنصور وناب من أنياب الدولة العباسية وركن من أركانها وعظيم من عظمائها. نادب نفسه إلى قتال بنى أُمية وصاحب جيش المغرب وقالَّ جيش مروان فى وقعة الزاب وثال عرش بنى أُمية فى دمشق وهاتك أستارهم ونابش قبور خلفائهم. كان عامل الخليفة فى دمشق فلما توفى السفاح دعا الناس إلى نفسه وقال لهم أن السفاح جمع أبناء أبيه وراودهم فى محاربة مروان وقال من انتدب منكم إليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري فذهب وأيدت للسفاح الملك وشهد له بعض أخصائه ومعارفه فبايعهُ لجميع فسير المنصور أبا مسلم إلى محاربته والتحم الجيشان وبعد قتال شديد هزم جيشه فذهب والتجأَ إلى أخيهِ سليمان بالبصرة.

أن هزيمة جيش عبد الله بن علي لم تكن عن جهل وضعف تدبير وقلة جند وجبن رجال بل كل شئ كان موفوراً اللهم إلا أن الجند لم يكونوا يعتقدون بصحة قضيتهم وأنهم يقاتلون على الحق بل كانوا موقنين أنهم

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

مبطلون فى دعواهم وأن عبد الله بـن علـي خـارجي فلـم يصدقـوا الحملـة ولم يحاربوا برغبة ولم يثبتـوا فـى القتـال فهزمـوا فلـو كـانوا مؤمنـين بصحـة دعـوة قائدهم لاستبسلوا ونُصروا نصراً مبيناً. ومن أبطال دعوة العباسيين سليمان بن كثير وأبى سلمة الخلاَّل وزير بنى هاشم ثم البرامكـة وغـيرهم ولكنـا لانقصـد هنا أن نلم بذكر جميع القواد العظام ونقتصر على تراجم هؤلاء الأبطال لترسخ فى ذهن الطالب شهرتهم ويعلم أن فى قومه رجالاً لا يقلون عن رجال الغرب الذين يتغنى بهم قومهم.

الفصل التاسع

(٤٧) الدولة الفاطمية نشوءها ودخولها مصر وبناء القاهرة

اعتقد أبناء فاطمة الزهراء بأنهم أحق بالخلافة من سواهم وبدأوا يعملون سراً لاسترجاعها. فتسرع بعضهم وجهر بدعوته قبل أن يكون له جيش يعززه فلاقوا القتل والصلب جزاء فعلتهم.

أما الفاطميون فقد أدركوا هذا السر واختاروا اقليماً قاصياً عن العمران بعيداً عن مركز الخلافة لينطوي ذكرهم ويخفى خبرهم فأرسلوا داعيتهم أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٨٠هـ وسنة ٨٩٣م إلى شمالي إفريقية يدعو إلى المهدي(*) ولم يعلن اسمه فلما انتصف أبو عبد الله واطاعتهُ القبائل ناوأ الحكومة واستولى على إفريقية ثم استقدم المهدي فسار عن طريق مصر وحل بمدينة رُقادَه وأمر أن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة ولقب بأمير المؤْمنين وقد أخذته الوحشة من أبى عبد الله الشيعي فقتله وأخاه أبا العباس بعد أن دانت له جميع بلاد المغرب.

ثم تاقت نفسه لفتح مصر وقد حاول خلفاؤُه من بعده ذلك فحالت دونهم حوائل إلى أن ولى الخلافة المعز لدين الله(**) سنة ٣٤١هـ وسنة ٩٥٢م

(*) هو عبد الله بن محمد وقد اختلف النسابون والمؤرخون فى نسبه فمنهم من يقول أنهُ فاطمي وهو الصحيح ومنهم من ينكر ذلك.

(**) كان خطيباً عالماً باللغة اليونانية واللغات الإفريقية شجاعاً قديراً فى السياسة حريصاً على النفوس.

فوجه همه وقوته إلى فتح مصر وسير إليها أكبر قواده جوهر. فدخلها ظافراً في سنة ٣٥٨هـ وقضى على الدولة الأخشيدية ثم ملك البلاد وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر العظيم وسير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمع كبير فبلغ الرملة وحارب الحسن بن عبيد الله بن طغج فظفر به وأسره مع قواده وبعث بهم إلى جوهر في مصر ودخل البلد عنوة وقتل من أهلها كثيراً. وجبى الخراج وسار إلى طبرية فوجد ابن ملهم قد أقام الدعوة الفاطمية فسار عنها إلى دمشق وبعد حروب عديدة استولى عليها.

تكون في المملكة العربية حكومات كثيرة ولكن لم يجرؤ أحد على ادعاء امارة المؤمنين واكتفوا بالسلطة الزمنية فقط فلما ظهرت الدولة الفاطمية القرشية أحدقت بالدولة العباسية الأخطار لأنها نازعتهم الخلافة والسلطنة معاً ولقبوا بأمراء المؤمنين ودعوا لأنفسهم على المنابر أما الدولة الطولونية والأخشيدية والأموية "الأندلسية" والطاهرية وغيرها فكان استقلالهم ينحصر في السلطة السياسية وظلوا يعترفون بالخلافة إلى الخلفاء العباسيين فصار للمسلمين آنذاك خليفتان عظيمان الأولى عباسي على ضفاف نهر دجلة والآخر فاطمي في حوض النيل وشرعا يتنازعان السيادة وكل بلاد كان يفتحها أحدهما لتقلص عنها دعوة الآخر ولكن بني أمية في الأندلس فأنه تربصوا حتى عهد عبد الرحمن الناصر فخطب له على المنابر ولقب بأمير المؤمنين.

تهيبت دول الشرق الحكومة الفاطمية وخافوا بأسها وقوتها فلم يقدموا على التحرش بها لعظمتها وفتوتها. وانبرى عز الدولة بختيار البويهي فأغرى

قائد القرامطة على مقاومة الفاطميين وساعده بالمال والسلاح فسار فى سنة ٣٦٠هـ إلى دمشق يطلب الاتاوة(*) من أهل دمشق التى كان قطعها الفاطميون فلم يحفل جعفر بن فلاح بجمعهم واستهان بهم فكسبوه وقتلوه وامتلكوا دمشق فأَمَّنوا أهلها وطمحت نفوس القرامطة إلى هدم دولة الفاطميين والاستيلاء على بلادهم فانقضوا علِى الرملة واحتلوها واستولوا على مافيها وحصروا جند الفاطميين فى يافا. وقصدوا مصر وقد التف حولهم خلق كثير منهم حسان بن الجرَّاح الطائى أمير عرب الشام فتصافوا قرب عين شمس واقتتلوا مرات كان الظفر فيها للقرامطة فاستعظم المعز الأمر وهاله فعمد إلى الحيلة واستمال أمير العرب حسان الطائي ورشاه بمبلغ ١٠٠ الف دينار فانسحب وتبعه العرب وثبت القرامطة إلى أن أرهقهم جند المعز فانقلبوا راجعين وأتوا الرملة وشددوا الحصار على يافا فسير جوهر من مصر ١٥ مركباً تحمل ميرة ونجدة للمحصورين فأَخذها القرامطة ولم ينج منها إلا مركبان غنمهما الروم ومن قول ابن بهرام القرمطي:

زعمت رجال الغرب أنى هبتها فدمي إذن ما بينهم مطلول
يامصران لم أسق أرضك من دم يروي ثراك فلا سقاني النيل

وساروا من فلسطين سنة ٣٦٣ إلى أذرعات ومنها إلى الإحساء وفى سنة ٣٦١هـ سار المعز لدين الله الفاطمى من إفريقية إلى مصر ونقل عاصمته إليها. وسنة ٣٦٤هـ انهزم أفتكين(**) التركي من مولاه بختيار وسار فى طائفة

(*) كان للقرامطة ٣٠٠ الف دينار يأخذونها سنوياً من ابن طغج. (**) يسميه الأتراك أنوشتكين والدروز نشتكين

صالحة من جند الترك فوصل إلى حمص ومنها إلى دمشق فدخل المدينة وأخرج حاكمها ريان وقطع خطبة المعز وخطب للطائع العباسي، فلما مات المعز جمع بجيازة واغتصاب بلاده وأغار على صيدا وانتصر على حاكمها وقصد طبرية فنهبها وعاث فيها فغضب الخليفة العزيز وأرسل جوهراً بجيش ضخم فانسحب أفتكين إلى الشام واستصرخ القرمطي فلباه فعرف جوهر وانصرف فسارا فى أثره فأدركاه بظاهر الرملة ونزلوا على نهر الطواحين (نهر روبين) فقطعوا عن الماء(*) فتراجع إلى عسقلان فحصراه مدة ثم فسحا له فذهب إلى مصر وأعلم العزيز فبرز وفرق الأموال وجمع الرجال وسار إلى محاربة القرمطي وافتكين وعلى مقدمتهِ جوهر فاصطدم الجيشان على مقربة من الرملة وبعد قتال عنيف انهزم القرمطي وتبعه أفتكين ومن معهما فبذل العزيز مائة الف دينار لكل من أتاه بافتكين أسيراً فأدركه المفرج بن دغفل الطائي وقد كظه العطش فأخذه إلى بيته وأكرم مثواه لما كان بينهما من الأنس القديم. ثم أعلم العزيز به فدفع إليه الجعالة وتسلمه فأحسن إليه وقربه وأعطاه الخيام وأعلى مكانه وأعاد إليه من كان يخدمه وحمله معهُ إلى مصر وجعله من أخص أعوانه. أما القرمطي فقد بعث إليه العزيز رسولاً يدعوه ليحسن إليه فلم يأمن وخاف الغدر فعين إليه ٢٠ ألف دينار سنوياً. وفى سنة ٣٦٨هـ تغلب المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي على الرملة وناحيتها وأظهر طاعة العزيز من غير أن يتصرف بأحكامه فعظم شأنه وكثر جمعه وعاث فى الأرض فساداً فجهز العزيز با لله العسكر وأمر

(*) كان ينحدر الماء إلى الرملة من عين بردة وهي تبعد ١٥ كيلو متر من شرقها وآثار القناة باقية للآن.

عليها القائد يلتكين فسار مجداً إلى الرملة وقد التف حوله القيسية "العرب" فقابله جيش المفرج وكان منظماً وبعد حرب قصير فرَّ ابن الجراح إلى أنطاكية والتجأ إلى أميرها اللخمي التنوخي. فانقضت خلافة العزيز وداخلية البلاد فى اضطراب واختلاف مع أنهُ كان حليماً عادلاً غير متعصب كثير التسامح لايفرق بين المذاهب والأّديان فكانِ كاتبه الخاص عيسى بن نسطورس مسيحي ونائبه فى دمشق منشا يهودي وقد اعتز المسيحيون واليهود فى خلافته وهجاه شاعر فقال:

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير اب وهذا الـ ... ـعزيز ابن وروح القدس فضل

فامتعض وغضب ولكن عفا عنهُ فأطال لسانه أحد الشعراء وغضَّ من هيبة الملك وقال:

زبارجي نديم ... وكلّسيٌّ وزير
نعم على قدر الـ ... ـكلب يصلح الساجور

فبلغه الخبر وعرف القائل فقال لابن كلس قد اشتركنا فى الهجاء فشأركني فى العفو وتوفى سنة ٣٧٦هـ وعهد إلى ابنه أبى على المنصور الملقب الحاكم بأمر الله ولغرابة أطوار هذا الخليفة نفرد له نبذة خاصة ..

(٤٨) الحاكم بأمر الله

ولى الخلافة سنة ٩٩٦م سنة ٣٧٦هـ وعمره إحدى عشر سنة ونصف فأوصى به والده ارجوان الخادم وجعله مدير دولته فتغلب عليه الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة وسيدها وبغى على الخليفة وتحكم فى المملكة وتلقب بأمين الدولة وهو أول من تلقب فى الدولة الفاطمية وعبث بالخليفة واستصغره فتبسطت كتامة فى البلاد ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية فأنف ارجوان وصبي الحاكم وكاتب بعض القواد والعمال لاستخلاص البلاد منهُ فسار حاكم دمشق منجوتكين إلى مصر فأذاع ابن عمار أنهُ عصى الخليفة وندب العساكر لمحاربته وأمّر عليها أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح فتصافا قرب عسقلان وأسر منجوتكين وهزم جمعه وبعث به أبو تميم إلى مصر فغضب ارجوان وثار فى مصر وأخذ السلطة من يد ابن عمار وبايع الحاكم ثانية فطمع المفرّج الطائي ونزل على الرملة ونهب ما وجده فأنفذ إليه ارجون جيش بن الصمصامة فاسترد الرملة وهرب المفرج الطائى من بين يديه ثم ثار ثانية فملك الرملة وما والاها فاستبشر أبو القاسم المغربي وزير شرف الدَّولة وانسل إليه وحبب إليه الخروج عن طاعة الفاطميين وحسن له أن يبايع سواهم فراسل أمير مكة الشريف أبا الفتوح وخاطبه بأمير المؤمنين ورغبه فى القدوم إلى الرملة ليبايع له بالخلافة فاستناب بمكة وحضر وخوطب بأمير المؤمنين ففرق الحاكم وراسل المفرّج وأبنه حسان ومجدهما وترضاهما وضمن لهما الاقطاع الكثير والعطاء الجزيل فعدلاً عن الريف وردَّاه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم الذي جهز عسكراً إلى الشام بقيادة على بن جعفر وأمره أن يكبس بني طيّ. فلما

وصل الرملة أزاح حسان وأبيه المفرج وعشيرتهما عن تلك الأراضي وأّخذ ما كان لهم من الحصون بجبل الشراة ونهب أموالهم وذخائرهم واستأُنف السير إلى دمشق. ثم أَمن الحاكم المفرَّج وأكرمه ووضع عليه من سمه فارتاح من شغبه. ومن أعمال الحاكم المتناقضة التى تشهد بضعف عقله وهوسه أنه ادّعى الألوهية وسمى نفسه الحاكم بأمرِه واضطهد الديانة الاسلامية وأمر بسب الصحابة وترك صلاة التراويح ونشر مذهباً جديداً أباح فيه زواج الأخ بأخته وحرّم أكل الملوخية لأن معاوية بن أبى سفيان كان مغرماً بها وأكرم النصارى واستوزر منهم فهد بن إبراهيم المسيحي ثم اضطهدهم واليهود فأمر بهدم كنيسة القيامة فى القدس وغيرها من الكنائس ثم أمر بعمارتها على نفقته وسلب أموالهم وأمرهم أن يلبسوا السواد شعار العباسيين احتقاراً لهم.

ونهى النساء عن الخروج من بيوتهن وقد أجمع الشعب على كرهه وتوقعوا بطشه فضجرت منه أخته ست الملك وتوقعت نقمته فاحتاطت لنفسها واتفقت مع القائد ابن دوَّاس على قتله فأمر من اغتاله قرب المقطم وأَخفى جثته. ومن آثار شيعة الحاكم فى سورية وفلسطين الأمة الدرزية التى تنتسب إلى أنوشتكين الدّرزَي ومحمد بن اسماعيل التميمي لداعي وهما المبشران بألوهية الحاكم ومذهب التقمص الذي صادف هوى فى نفوس القرامطة "الدروز" فاعتنقوه. وبعد أن فقد الحاكم جمعت ست الملك الناس وأحسنت إليهم ورتبت الأمور وبايعت للظاهر لاعزاز دين ا لله وجعلت الأمر فى يد ابن دواس تطميناً له ثم أمرت بقتله وأعلنت للقواد أنه هو الذى قتل سيدهم ومدّت يدها إلى الملك فاستبدت به.

وسنة ٤٠٢هـ استطال حسان الطائي واستفحل أمره فى فلسطين وعقد حلفاً مع صالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان واتفقوا على أن يقتسموا سورية بينهم فيكون من حلب إلى عانة لصالح ودمشق وملحقاتها إلى سنان ومن فلسطين إلى مصر لحسان فاستولى صالح على حلب وبلادها وحصر حسان الرملة وامتلكها ومن تأمل قليلاً فى هذا الحلف يجده منطوياً على أسرار خطيرة لأن هؤلاء الرجال كانوا أُمراء القبائل العربية فى عصرهم ويشبهون فى الحالة الراهنة ابن سعود وخزعل وابن الشعلان وابن مهيد.. إلخ. وقد رأيت مما مرّ بنا أن أسماء القواد والعمال كانت أَجنبية ولم يبق للعرب حظّ فى دولتهم فنقموا هذه السياسة وعقدوا حلفاً عربياً صرفاً ضد الأعاجم الذين كانوا يحكمون رقاب قومهم ويسومونهم سوء العذاب. وقد تنبه الوزير لمهلبى إلى هذه الأخطار وأشار إلى ماترمي إليه الحكومة من سوء الإدارة باقصاء العرب وتقريب الأجانب.

وقد لمح المتنبى فى شعره إلى أن البلاد العربية أصبحت أعجمية فقال قصيدة منها:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

فمن هذا يظهر أن البلاد العربية والشعب العربي انفصل عن حكومته وسادت عليه العناصر الأخرى فكان يشكو ويتألم ولكن بلا جدوى لأنهم كانوا غير قادرين على دفعهم والخلفاء لايأخذون بيدهم فعقدوا هذا الحلف

وحاولوا أثبات حقهم وكان يجب على الخليفة الظاهر أن يؤازرهم ولكنهُ سخط وغضب ثم جهز قائده أنوشتكين البريدي بجيش كبير فسار إلى فلسطين ودلف إليه حسان وصالح فتصافوا فى سهل الأقحوانه(*) وبعد قتال عنيف قتل صالح وابنه الأصغر وأرسل أنوشتكين رأسيهما إلى مصر واستولى على جميع البلاد ونجا نصر بن صالح فأسس في حلب الدولة المرداسية واستكان حسان حتى سنة ٤٣٣هـ ثم نهض مع بنى كلاب وثاروا ثانية ولكنهم لم يفلحوا وسنة ٤٦٠هـ كثرت الزلازل بمصر والشام فانثلم سور القدس وانهدم أكثر منازل الرملة وهللت تحت الردم خلق كثير فتحولت المدينة إلى قرية وانشقت صخرة بيت المقدس. وسنة ٤٢٩هـ سمح الخليفة المستنصر بتعمير كنيسة القيامة وهادن ملك القسطنطينية.

وفي أيام هذا الخليفة اجتاز عرب بنى هلال فلسطين وعبروا مصر وقد بولغ فى قصصهم حتى اختلط الصحيح بالفاسد ولكن ابن الأثير وابن خلدون ذكرا ما نورده هنا بعد التمحيص فقالا: أن المستنصر استوزر الحسن بن على من قرية يازور (قرب يافا) ولم يك من أهل الوزارة بل كان قاضياً على الرملة فأكرم العلماء وبجلهم فأحبوه وساعده الحظ فارتقى الوزارة ونال الإمارة بجده وعلمه واتفق أن والى إفريقيا المعز بن باديس قطع خطبة العلوي سنة ٤٤٠هـ وخطب للقائم العباسي فحنق المستنصر وتهدده فأغلظ المعز فى الجواب وخرج عن مألوف المخاطبات مع اليازوري وكاتبه بصنيعتهِ "وليس بعبده" فعاتبهُ فلم

(*) القحوانة قرب طبرية على شاطئ البحيرة.

يرجع وطغى فلما ان قدمت قبائل بني هلال زغبة ورياح وسليم وعدى وخفاجة وأميرهم مؤنس بن يحيى المرداسى انتهز المستنصر ورجاله هذه الفرصة وأصلحوا ما بينهم وأزالوا أحقادهم وأعطوهم أموالاً ووجهوهم إلى القيروان وعاهدوهم بأن يعطى لهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والمساعدة فدخلت العرب أفريقية وكتب اليازوري إلى المعزّ: "أما بعد فقد أرسلت إليك خيولاً فحولاً ورجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً" فجاسوا الديار وعاثوا فيها وامتلكوها وظلوا فى حروب مستمرة حتى أواخر سنة ٤٥٧هـ فاصطلموا زنانة وتم لهم النصر.

وفى عهد المستنصر با لله كثرت الاضطرابات فى مصر فاستقدم الخليفة بدر الجمالي حاكم عكا لاصلاح ما فسد فنشط بدر ودخل مصر فى جيش من أهل فلسطين ففتك بجند الأتراك ولكن الخليفة لم يتعهد بلاد سورية فشغرت وهب ملكشاه السلجوقى لامتلاكها وفى سنة ٤٨٧هـ توفى الخليفة المستنصر وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

(٤٩) الدولة السلجوقية

زحف من تركستان إلى البلاد الإسلامية قبائل متعددة كانت خاضعة إلى الأمراء السلاجقة الذين انقسموا فيما بعد إلى دول ثلاث: خراسانية وسورية وأناضولية. وقد اشتهر طغرل بك حفيد سلجوق بالشجاعة والفطانة وساعده الحظ والاجتهاد إلى أن دخل بغداد وخطب له على منابرها واخضع من تمرد على العباسيين ولكنهُ توفى عقيماً فانتقل ملكه إلى ابن أخيه السلطان

ألب أرسلان الذى امتد نفوذه واتسعت حدود بلاده واستولى على حلب فلما قضى خلفه ابنه ملكشاه فهمّ بفتح مصر واستئصال الدولة الفاطمية وسير سنة ٤٦٣هـ وسنة ١٠٧٧م أحد قواده اتسز "اقسز" بن أوق لخوارزمي إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة وحاصر القدس وفتحها وملك مايجاورهما من البلاد خلا عسقلان وقطع الخطبة الفاطمية وأحيا الخطبة العباسية وفى سنة ٤٦٨هـ حاصر دمشق وفتحها ومنع الشيعيين أن يجهروا فى آذانهم بفقرة "حيَّ على خير العمل" وان يؤَذنوا كالسنيين وفى سنة ٤٦٩هـ سار لفتح مصر فقابله أمير الجيوش بدر ومعه جمع كبير من العرب فهزمه وقتل أخاه وأكثر أصحابه فعاد اتسز منهزماً إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق وقد خالف أهل القدس حاكمهم فنهد إليهم وحصر المدينة ففتحها عوة ونهبها وقتل أهلها حتى من التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عمن عاذ بالصخرة. وفى سنة ٤٧١هـ أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة تتش فكف هجمات المصريين عن البلاد وقتل أتسز لأنهُ لم يستقبله وبعد وفاة ملكشاه استقل فى سورية ودعا لنفسه. وفى سنة ٤٨٢هـ نهضت عساكر مصر لاسترداد سورية فلم يتوفقوا إلا لفتح عكا وبعض بلدان فلسطين فعين أمير الجيوش عليها الأمراء والعمال وفى سنة ٤٨٦هـ فتحوا مدينة صور. ولما توفى تتش انقسمت مملكته إلى قسمين كانت قاعدة أحداهما حلب وملكها ابنه رضوان وحاضرة الأخرى دمشق وسلطانها دقاق: فشاق رضون أخاه وسار إلى فلسطين ليفتحها فجاء إلى نابلس والقدس ورجع خائباً ثم مات دقاق ملك سورية وأستبد بالمملكة أتابكه "مملوكه" طغتكين وأَسس ملكاً لولده بوري المنتسبة إليه هذه

الدولة وقد وهم بعضهم فظنها دولة سلجوقية والواقع أنها بورية وهكذا ظلت الدولتان السلجوقية والفاطمية فى عراك وصدام فإذا ما استضعفت أحداهما الأخرى كانت تغير على بلادها وتقتطعها فتتربص الثانية حتى يوهن عدوتها فتق أو طارئ جديد فتنال به غرة وتهب بخفة وتسترد منها ماسلب. فباغتهم الصليبيون وهم منهوكو القوى وبلادهم فوضى وجيوشهم قد سئمت الحرب وملته وزهدت فى القتال والدفاع وطما عليهم السيل الغربي وأيقظهم التيار الأوروبي فغمر بلادهم وحكم فى رقابهم وطردهم من أوطانهم وسلب أطيب رقادهم حتى قيض ا لله لهم صلاح الدين فأخذ ثأرهم ونفى عارهم واسترد استقلالهم ونجاهم من عذاب أليم.

الفصل العاشر

(٥٠) الصليبيون

توالى على العرب فى فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة أعظمها الحملات الصليبية الأوروبية التى كان الباعث لها أسباباً خطيرة لايسعنا تفصيلها فى هذا الموجز بل نكتفى بسردها مختصرة فنقول: ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوربا بمظهر دينى فقط فأشاعوا أن السلجوقيين أهانوا حجاج المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا الخبر قطعاً بل ذكرت أن المسيحيين كانوا ينعمون فى حريتهم مثل المسلمين وما كان يقترفه بعض الملوك مثل الحاكم الفاطمى من الظلم والجور كان يشمل المسلمين والمسيحيين على السواء ولكن هذه الحروب كانت منطوية على أمور سياسية كما ورد فى خطاب البابا أوربانوس الذى حرض به الممالك التجارية على اغتنام هذه الفرصة ويقال أن روم القسطنطينية خافوا سلجوقيى الأناضول فاستغاث امبراطورهم بالبابا ووعده أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما ويقال أن الحكومات التجارية حرصت على أسواق الشرق لما اضطربت العلائق بين آسيا وأوروبا فهبت تدافع عن مصالحها وقيل أن أيدي أمراء المقاطعات فى أوروبا سيما فى أنكلترا كفت وألغيت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون لهم عن بلاد أخرى يستعيضون بها عن مقاطعاتهم. ومما هو جدير بالذكر أن أوروبا كانت حينئذ مسوقة بتيار دينى وهوَس مسيحي وكان ذلك الوقت زمن

الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ويغيث الضعيف والمظلوم. وهذا الشعور الدينى كان عاملاً عظيماً فى الحروب الصليبية لأنهُ عز على أبناء المسيح فى أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم فى يد عدوهم.

فلما زار القدس بطرس الناسك الأفرنسى فى أواخر القرن الحادي عشر وشهد خشونة التجبر وذاق مرارة التحكم التهبت فى صدره نار الحمية وقابل بطريرك القدس فحدثه بهذه الشدة والقساوة ووعده أن يستبدل هذا الذل بالعز وصمم على اثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هو لم يمت فلما رجع أعلن ما رآه وحدث البابا بما عاين ولمس فعقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ فنجح وأقنع الأمم الأوروبية وهاجمهم وحرضهم على فتح فلسطين والاستيلاء على الأماكن المقدسة ولكنا نضرب صفحاً عما يتعلق منها بأوروبا بحثنا بما جرى فى فلسطين لأن هذا المختصر لايتحمل التطويل فنقول كانت فلسطين قبل قدوم الأفرنج محطة للنوائب لأنها توالت عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن وأهزلتها المجاعات بل كانت شبه كرة يتلقفها فريق ويتخطفها آخر فيوماً تكون تحت النفوذ العباسى ويوماً فى يد الفاطمى يتنازع عليها القواد ويغتصبها الأمراء ويقتسمها العمال وليس للخلفاء إلا الخطبة والسكة والطراز وأصحاب الأقاليم والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال يعلنون الحروب ويؤيدون الخليفة ويتمسكون به ليهبهم الألقاب ويخطب لهم على المنابر.

فزحفت جموع أوروبا إلى سورية باذلة أرواحها ومهج بيه وحملوا على الشرق تسع حملات تخللها كثير من النجدات بعضها هوى فى الطريق والبعض الآخر وصل فلسطين.

الحملة الأولى : سنة ١٠٩٦م أو سنة ٤٩٠هـ

كانت الحملات الصليبية خليطاً من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة والمتطوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبائل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير يدبر شؤونهم كأنهم قطيع من البشر ساقهم التعصب الدينى إلى الموت.

اجتمع فى فرنسا سنة ١٠٩٥م جمهور مختلط يبلغ عددهم مئتى ألف نفس بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب + المنقوش على سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فالنمسا فهنغاريا فالآستانة وهنالك أحصى عددهم فإذا هم النصف والباقى تخطفهُ أهل البلاد فقتلوهم ومنهم من مات جوعاً أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانطفأ أمله بانقاذ القبر المقدس. فاستأنف الباقون السير براً إلى الأناضول فصدهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا على أنطاكية سنة ٤٩١هـ وسنة ١٠٩٦م ومنها انحدروا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا مجدين فى سيرهم مصممين على فتح بيت المقدس فلما عرف الفاطميون بقدومهم ورأوا الخطر المحدق بهم طلبوا مصالحتهم على شرط أن يسهلوا الطرق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقصدوا

الرملة فذهب إليهم نفر من أهالى بيت لحم ورحبوا بهم وحثوهم على قتال الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم ٤٠ ألف مقاتل فحاصروها وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

(٥١) فتح القدس

كانت القدس قبل الفتح الصليبي فى يد سلاجقة الشام فخرج عسكر الخليفة الفاطمي بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي واستولى عليها أماناً فى شعبان سنة ٤٨٩هـ فدخلت فى ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفتخار الدولة فأتاها الأفرنج وحصروها نيفاً وأربعين يوماً وعانوا صعوبات شديدة نأتي على أجلها.

١- قلة الماء: فإنهم كانوا ينقلونه من البيرة وعين كارم ولفتا.

٢- نفاذ الذخيرة: إننا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعاً لتأمين المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجند الجوع والعطش وكانت الحكومة المحلية تحرسهم والشعب يوآزرهم فكيف بجماعات غرباء فى بلا يمقتهم أهلها ويقبحون أعمالهم وينكرون فظائعهم.

٣- لوازم الحصار: فإن المحاصر يحتاج إلى أخشاب وأدوات أخرى وهؤلاء الدخلاء لم يحضروا معهم شيئاً من ذلك وكانت البلاد قاحلة والأحراج بعيدة عن القدس ولولا قدوم السفن الإيطالية التى كان معها كثير من الأخشاب لما قدروا على بناء الأبراج ولما استطاعوا التسلق على جدران المدينة ولكنهم ذللوا كل هذه الصعوبات وحاصروا المدينة ودخلها غودفرى من باب الساهرة وهو أول الداخلين ثم فتحت جميع الأبواب

فملكوا القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ وسنة ١٠٩٩م ولبث الفرنج يقتلون ويفتكون فى نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعاً ويقدر ما قتل منهم فى المسجد الأقصى ما يربو على ٧٠ ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلماؤهم وعبادهم ممن جاوروا بيت المقدس وما ندري لو تجلى السيد المسيح ورآهم يرتكبون تلك المخازى والمنكرات ماذا عساه يقول لهم وهو القائل "أحبوا أعداءَكم" ولو انا قايسنا بين دخول عمر بن الخطاب البدوى وبين دخول غودفرى الأفرنسي الذى عاش فى القرن الخامس بعد عمر لخجل الفرنج من سيرة قائدهم وفظائعه وأفتخر العرب بعدل خليفتهم ومآثره.

فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا لجموع لمحاربة الفرنج واسترجاع بيت المقدس فهتف الأبيوردي بقصيدة عصماء منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فليها بنى الاسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
ولك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرّع بعدها سن نادم
أرى أُمتي لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهي الدعائم
فليتهم إن لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهددهم فعاجلوه وهزموه وقتلوا من جيشه كثيراً وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها ٢٠ ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى القدس متخاذلين فأسسوا مملكة لاتينية صغيرة على شكل الاقطاع الأوروبي القديم واختاروا غودفرى أميراً عليهم وشرعوا يفتحون ما بقى من مدن فلسطين فعاجل غودفرى أجله ودفن فى كنيسة القيامة على يمين الداخل ويوجد هناك سيف يزعمون أنهُ سيفه ولا يعمل حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعده أخوه بلدوين ففتح مدينة أرسوف أماناً وحيفا وقيسارية وقتلوا أهلها.

ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلاً صور وعسقلان وظلوا فى حروب مستمرة مع الفاطميين وبوريي دمشق فلم يظفر أحدهم بالآخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحكم الخلاف بين السلاجقة فشغلوا عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضاً حتى إن بكتاش بن تتش أخو ملك سورية وايتكين الحلبى صاحب بصرى حالفاهم فاطمأن الصليبيون وظنوا أنهم ملكوا البلاد فبنوا قلعة الشوبك والكرك وحصون عثليت وصفد وطبرية. وفى سنة ٥١٩هـ انضم أمير العرب دبيس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفى سنة ٤٩٦هـ سير الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة لمحاربة الفرنج فلقيهم بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كبا بهِ الجواد فقتلوه وهزموا جنده

وملكوا ما فى خيامه فأرسل الأفضل ابنه شرف المعالي فى جمع كثيرا وصادمهم قرب يازور وهزمهم واثخن فيهم وأسر كثيراً من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فثبت عزمه وخارت قوته فانسحب إلى عسقلان واحتمى بها فحاصروهم ثم قفلوا راجعين إلى القدس.

وفى سنة ٥٠٢هـ سار طغتكين إلى طبرية فحارب ابن أخت بلدوين وانتصر منه وأسره ثم هادن بلدوين أربع سنوات. وفى سنة ٥٠٧هـ نزل طغتكين بجيشه الأقحوانة وحارب الفرنج فخذلهم وغرق منهم خلق كثير فى البحيرة ونهر الأردن فاستغاثوا بالأفرنج طرابلس وانطاكية فانجدوهم وأعادوا الكرة ولكنهم جبنوا والتجأوا إلى جبل غرب طبرية فحصرهم طغتكين ٢٦ يوماً ثم سار إلى بيسان فنهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفى سنة ٥١٢هـ خف طغتكين لمحاربة الفرنج فلقيهم بين دير أيوب وكفر بصل (فى حوران) ودخل طبريا ونهبها وما حولها وقصد عسقلان واتفق مع الجيش المصرى المرابط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبيون فى كروفر حتى سنة ٥٤٧هـ وسنة ١١٥٣م فانقض الفرنج على مدينة عسقلان وفتحوها ونزعوها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم.

ثم قام بعد بلدوين الأول بلدوين الثاني والثالث والرابع والملك أموري ولكن هممهم أخذت تضعف وتفتر وهمم الوطنيين تقوى وتستعر لأن حماسة الصليبيين تلاشت وانطفت حرارتها فزال المحرك الذى ساقهم لانقاذ البلاد

والقبر المقدس مما رأَوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم الى بلادهم وتخاصم الباقون على التاج والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صلاح الدين فدك عرشهم ونكس أعلامهم.

الفصل الحادى عشر

صلاح الدين الأيوبى

مؤسس الدولة الأيوبية

(٥٢) حالة العالم الاسلامى

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين نمهد للقارئ الأسباب التى ساعدته على بلوغ هذا المقام العالى فنقول: كان العالم الاسلامى فى سبات عميق فالاشراف يتنازعون الخلافة حتى لايكاد يمر عام إلا ونسمع أنهُ خطب لفلان على منابر اليمن أو الحجاز أو مصر ولآخر فى شمال أفريقية والعراق أو طبرستان إلخ.. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنو زنكي "مماليك السلاجقة" ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج فامتلك دمشق سنة ٥٤٩هـ واختار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين قائداً عاماً لجنوده.

فلما اختلت أحكام مصر وغُلب الخلفاء على أمرهم تواثب الأمراء وطمعوا فى الوزارة فتولاها فى سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد ضرغام وغصبها من شاور الذى التجأ إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلاً أقطاعات العساكر ويظل شيركوه بعساكره فى مصر "احتلال عسكري"

فأرسل معهُ أسد الدين شيركوه فدخل مصر وقتل ضرغاماً وعين شاوراً محله فنكث وعده واستعان الصليبيين على إخراج أسد الدين من بلاده فأجابوه وردوا الجيوش الشامية.

وفى سنة ٥٦٢هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الاسكندرية واثخن فى الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبى أمواله وأخيراً اتفقوا على أن تبرح جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركوه خمسين الف دينار سوى ما جباه من الأموال فتمت المعاهدة ورجع إلى الشام. لكن الصليبيين نقضوا وتواطأوا مع المصريين على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة تحرس أبواس المدينة ويعطى لها معاشاً سنوياً مائة الف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتجبروا وطمعا فى استملاك البلاد وأرسلوا جنداً للاستيلاء على مدينة بلبيس وافحشوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاث الخليفة العاضد بنور الدين واستنجده فلباه بارسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالمهمات وأعطى لكل جندى علاوة على راتبه عشرين ديناراً فساروا حتى قاربوا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين فى سيره حتى قدم القاهرة فدخلها ورضى عنه العاضد لكن شاور أخذ يماطل فى اقطاع الجند وثلث البلاد ففرغ صبر صلاح الدين وفتك به فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبهُ الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاريخ وزارته توفى "حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة" فهب أمراء الأجناد يطالبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختار العاضد يوسف صلاح الدين ابن أخى أسد الدين وولاه الوزارة وخلع عليه مراسيمها ظاناً انه صغير

السن قليل الاختبار والدربة فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجنـد ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله.

وطمع الفرنـج فى صـلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحاصروها سنة ٥٦٥هـ وسنة ١١٦٩م فقاومهم صلاح الديـن وأغار على بلادهـم السامية وناوأ الكرك فخافوا العقبى وارتدوا على أعقـابهم فاقتفاهم وكبس عسقلان والرملة ونهب ربض غزة وفتح فرضة أيلة "العقبة" ثم أرسل أخاه شمس الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو فى السودان وضمهُ إلى مصر. فدبت الغيرة فى صـدر نور الدين وخشى أن يتفق صلاح الدين والفاطميين ويخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقطع خطبة العاضد ويخطب إلى المستضئ العباسى ابتغاء جمع الكلمة فتردد صلاح الدين قليلاً ثم أمر سنة ٥٦٧هـ وسنة ١١٧١م بلبس السواد شعار العباسيين وخطب فى الجوامع للمستضئ وقطع خطبة الفاطميين فانقرضت الخلافة الفاطمية بعد أن دامت ٢٦١هـ سنة فلم تطب نفس نور الدين وخاف العقبى فاستوحش صلاح الدين وسعى ليبقى الفرنج حاجزاً بينهما وكم حاول نور الدين الاجتماع به فلم يتوفق لأنه كان اذا ما اقترب منهُ قفل راجعاً إلى مصر متعللاً بالأعذار وظلا يراوغ أحدهما الآخر حتى توفى نور الدين واستخلف بعده ولده الملك الصالح إسماعيل فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمهِ وتربص مترقباً حصول فتنة أو خلاف فى بيت زنكي فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذى كان يخاطبه بالمملوك ثم فتح قلعة حمص وبعلبك وحماه وغير ذلك.

وفى سنة ٥٧٣هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان وبث السرايا للغارة والارهاب وانفرد بثلة قليلة من الجند فباغتهُ الفرنج على نهر روبين وفتكوا بجنده فرجع مخذولاً وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر
نجونا من الموت الوحى غير مرة وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر

وفى سنة ٥٨٠هـ بنى الفرنج حصناً منيعاً بمخاضة الأحزان "جسر بنات يعقوب قرب صفد" فعز على صلاح الدين فواقعهم وبعد معركة شديدة أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين فتح الحصن وهدمهُ وكان فخر هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الذى غشى الوغى وهو يتمثل

فان تكن الدولات قسماً فانها لمن يرد الموت الزؤام تؤول
ومن هوَّن الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكماة صليل

إن الحركات الحربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى القدس على الكرك والشوبك لأنهما فى طريق الحج وجسر اتصال بين الشام والحجاز ومصر ومن جهة غربيها على عسقلان لأنها محطة الارتباط بين مصر ودمشق فمن كان يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعيق الحركات وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها فحجزوا ما بين مصر والشام وضيقوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرور وطمعوا فى مهاجمة مكة والمدينة المقدستين للقضاء على الدين الإسلامي فسار البرنس ارنا "رينو" **Renaud** صاحب الكرك إلى تيماء فى سنة ٥٧٧هـ وسنة

١١٨٢م مستطلعاً فسمع بذلك عز الدين فرخشاه والى دمشق وسار مجداً إلى الكرك فنهب بلادها وصد أرناط عن التقدم ولكن فى سنة ٥٧٨هـ نضجت فكرة فتح الحجاز فى دماغ البرنس ارناط وعزم على خضد شوكة المسلمين فعمل أسطولاً وجمع قطعه مفككة وحملها إلى بحر إيلة ثم ركبها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فى البحر الأحمر وحِصر من فى ايلة ومخر من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرف الملك العادل وأمر قائد أسطوله لؤلؤاً بمطاردتهِ فسار وبلغ أيلة وقتل من عليها وتبع من فى البحر بمراكبهِ وجنده فادركهم فى ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البر فأخذ خيلاً من الأعراب وأركبها جنده ومازال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسر منهم كثيراً ونحرهم وسار صلاح الدين من دمشق إلى طبريا فخيم فى الأقحوانه ونزل الفرنج طبريا فشد فرخشاه على بيسان وفتحها وغنم ما فيها ثم أغار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرة ثانية فغزا بيسان وخربها وأغار على الكرك لما صدر عنها نهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما على طريقها ونهب سبسطية وجنين وفى سنة ٥٨٢هـ انحاز كونت "قُمص" طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالمناصرة وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً وأطلق من عنده من أساه. وقد طاش سهم البرنس أرناط فغدر بعهده بعد الهدنة وأغار على قافلة عظيمة كان فيها أخت صلاح الدين فنهبها وأسر رجالها. فغضبت الأفضل بن صلاح الدين وغزا بلاد عكا وحارب الأعداء فى قرية صفورية فكسرهم وقتل عدداً من شجعانهم ولكن جميع هذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات

لمعركة فاصلة أما أن تكون له أو عليه.

(٥٣) معركة حطين(*)

رأى صلاح الدين أن الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعات فى داخل مملكته: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثة أنطاكية والرابعة الرها وارفا وأن تلك المقاطعات كانت بؤرة ثورات وفساد فى قلب مملكته. وكان أشدهن تنكيلاً برجاله وأثقلهن عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطالهم واعندهم البرنس أرناط صاحب الكرك الذى حاول احتلال الحجاز وتعرض لاخت صلاح الدين وكرر نكثه للعهود مما أسخط المسلمين وأحفظهم على صلاح الدين فأطالوا ألسنتهم فوّقوا إليه سهام السباب واللعن وقالوا ترك قتال الفرنج وأقبل على المسلمين يقاتلهم ويفتح بلادهم. فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشاً عرمرماً وعسكر فى سهل الأقحوانة واستشار قواده فأشار عليه بعضهم بترك مناضلة الأعداء والاكتفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاقاتهم ومناجزتهم فعزم على المناجزة والدخول مع الفرنج فى ملحمة كبرى فسار إلى طبرية وفتح المدينة دون القلعة وأحرق مافيها من الذخائر الفاضلة عن حاجتهِ واحتفظ بمنابع المياه ولما أحس الفرنج بعمله استخفوا به وبجيشهِ وساروا إلى ملاقاتِه فى ٢ تموز الموافق ٢٤ ربيع الآخر فاشتد عليهم العطش من حمَّارة القيظ وتقابل الفريقان فى سهل قرية لوبيا وعزم الفرنج على ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصدهم

(*) قرية صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا.

عنهُ وأمر بـاحراق العشـب والأشـواك فـأخذ منهـم الظمـأ كـل مـأخذ وحملـوا حملات عنيفـة كـادوا يزيلـون بهـا المسـلمين لـولا ثبـات أبنـاء فلسـطين الذيـن استماتوا فى حومـة الوغـى حتـى هـب عليهـم ريـح النصـر وكسـروا الفرنـج وركبوا أقفيتهم وطحنوا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتلاهم فى حطين بثلاثين ألفاً خلا الأسرى فقدِ أُسر وكثير من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاي ورنو "أرناط" صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون مـن القتـال فـائزين جلس صلاح الدين فى خيمتـهِ وأحضـر ملـك الفرنـج ورنـو صـاحب الكـرك وأجلس الملك إلى يمينه وأعطاه ماءً مثلوجاً فشرب وأعطى فضله البرنس أرناط فغضب السلطان وقال للملك أن هذا الملعون لم يشرب باذني فينال أمـاني ثـم التفت إلى البرنس وذكره بذنوبه وعدد عليه عوراته وقام إليـه بنفسـه وضـرب رقبته وقال كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به الأولى حينمـا أراد المسـير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلـة غـدراً ثـم أمـر بـهِ فسـحب إلى خـارج المكان وباسط الملك وأَمَّنهُ.

كانت معركة حطين مـن المعـارك الفاصلـة التـى ختمـت بهـا الحـروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدير بأهل فلسطين أن يجعلوا يوم السبت الرابـع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ عيداً سنوياً وتذكاراً ورحياً عظيماً فـإن فيه خضدت شوكة الجيش الصليبي وفلَّ حده وقويت جموع الوطنيين وانتعشت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها مـن زوجـة صاحبهـا أَمانـاً ووفـى لهـا صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتلكها وجـاء الملـك العـادل مـن مصـر وفتـح حصن مجدل يابا "مجلد الصادق" ويافا وسـاحت عسـاكر السـلطان فـى البـلاد

ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا فالشقيف وغيرها من البلاد المجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بجنود أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبثوا السرايا فى أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وغزة والخليل وبينة وبيت لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤاً أن يقطع طريق البحر ويتصيد مراكب العدو ويمنعها أن ترسو على سواحل البلاد وأرسل رسلاً لمفاوضة أهل القدس كى يسلموا المدينة فرفضوا فنهد إليهم بجنده وخيم على النكفورية بين المحطة وبركة ماملا وظل خمسة أيام يطوف حولها لينظر أى الجهات أسهل للمهاجمة ثم انتقل بجيشه إلى الشمال الغربى جهة المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة وشدد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وفى ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧م على شروط منها:

أن يؤخذ عن كل رجل ١٠ دنانير والمرأة خمسة والولد دينارين فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يوماً يصبح مملوكاً للعرب فبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين على أبواب البلدة أمناء ليأخذوا ما ضرب على الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له به الأعداء فسمح لنساء المملوك والأميرات بحشمهن وخدمهن ولم يأخذ من البطريرك إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معهُ من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملاكهم وسمح لهم أن يشتروا متاع الأفرنج وقد وهب لمظفر الدين كوكبوري الف مملوك من الفرنج فأعتقهم ووهب أيضاً لأخيه العادل ولكثير من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على

الضعفاء ورفق بالفقراء فسمح لهم بالخروج من باب العمود وأرسل معهم جنوداً لايصالهم إلى المدن التى كانت لا تزال فى أيديهم فأنكرهم أخوانهم وأبوا قبولهم وأغلقوا الأبواب فى وجوههم وأَرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فتاهوا فى الفيافي وتتتوا فى أنحاء البلاد فرثى لهم عدوهم العربي ورحمهم وأغلظ لهم صديقهم الغربي وجفاهم مشايعهم الأفرنجى ولو أنا قابلنا هذا العمل بما أتاه الفرنج قبل ٨٨ سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكارم وعزة الملك وكبر النفس جلية فى أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفظاعة والتوحش والتعصب واضحاً فى أفعال غودفرى الذى قضى على ألوف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبى عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبي فى الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتماثيل الصغيرة والصلبان التى نقشوها ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى أمر بصنعه نور الدين زنكي فى جلّب وبالغ فى اتقانه فاستغرق عمله عدة سنوات، وكان بين صنعه ونقله إلى القدس ٢٠ سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وترصيفه بالفسيفساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة حنة مدرسة للشافعية "الصلاحية" وأخذ قسماً من منزل البطريرك وحوَّله إلى جامع وخانقاه للصوفية "الخانكي". وفى سنة ٥٨٤هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صفد فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناء والتحق فرنجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب أفراط صلاح الدين وتساهله مع الفرنج وبالاً عليه حتى

قال ابن الأثير "لم يكن لأحد ذنب فى أمر صور غير صلاح الدين فانهُ هو الذى جهز إليها جنود الفرنج وأمدّهم بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسقلان" فأصبحت مركزاً لحملاتهم ونجداتهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما تخم ولا يحجز بينهما عدو.

(٥٤) الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الاسلامى يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدران وقوع القدس فى يد صلاح الدين أحدث تأثيراً عظيماً وصدى سيئاً فى نفوس الغربيين فقام منهم رجال كثيرون وحرضوا قومهم على استرجاع القدس وانتزاعها من أيدى المسلمين فنجحوا وأجمعت أمم أوروبا وحكوماتها ثانية على محاربة الشرق الأدنى واعلان النفير العام لاسترجاع القدس فهب ركاردس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه فى انكلترا رغبة فى انقاذ بيت المقدس ونهد امبارطور المانيا بربروسا "ذو اللحية الحمراء" وآزرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فغرق ملك الألمان فى نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج فى صور فتحمسوا وجددوا نشاطهم واضطرمت النار بغتة فى صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصدهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتئذ موعوكاً فمرَّ بكفر كنا وخيم على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى نهر المقطع وأنزل الأثقال فى قرية صفورية واستعرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم

فيها قسم من الوطنيين وفاز الباقون وظفروا بعدوّهم ثم انتكست صحة صلاح الدين فرحل إلى الخروبة "تل الفخار" حيث توفى أحد قواده ضياء الدين عيسى الهكاري العلمي الحسني فنقل إلى القدس ولما أبلّ صلاح الدين عاد إلى مخيمهِ القديم "تل كيسان" فوجد الفرنج يجدون فى حصار عكا وقد احتاطت بها أبراجهم فاخترع على ابن عرِيف النحاسين الدمشقى نفطاً أحرق به الأبراج الثلاثة فاطمأن السلطان ورجع إلى الخروبة ونقل أثقال المسلمين إلى قرية الدامون "ميمون" الواقعة على بعد ٣ فراسخ من الخروبة وقد ذكر ابن الأثير أن نصارى العرب كانوا مأموريى إعاشة جيش صلاح الدين وخزنة أمواله وكان مركزهم فى مدينة حيفا وظل الحرب سجالا إلى أن قدم فيليب ملك فرنسا فجد فى قتال مسلمي عكا وشدد فى حصارهم فكان صلاح الدين يركب يومياً من شفا عمرو ويشاغلهم بالقتال ليفرج عن البلد فلما أتى قلب الأسد تحول صلاح الدين ونزل عليهم لئلا يتعب عسكره من الغدو والرواح وفى ١٧ جمادى الأخرى سنة ٥٨٧هـ استولى الفرنج على عكا سلماً بشروط غدروا ولم يفوا بها وانحدر قلب الأسد جنوباً وعسكر صلاح الدين يحاذيهم من جهة الشرق فالتقوا فى مدينة أرسوف "على مقربة من حرم على بن عليم" واضطربوا فهزم جيش المسلمين وأخذ الفرنج يفتحون البلاد الصغيرة حتى أنهم دخلوا يافا ولم يجدوا فيها أحداً. أما صلاح الدين فانهُ استشار قواده فى شأن عسقلان فقرروا هدمها لمكانة موقعها الحرب ولعجزهم عن حمايتها ولأن من يستولى عليها يستطيع أن يقطع الطريق من مصر ودمشق وقد ذكرنا سابقا أن صلاح الدين كان يرسل نجداته وجيوشه عن طريق البادية

خيفة هجمات الحصون الساحلية فهدم صلاح الدين مدينة عسقلان وباع أهلها كل ١٢ دجاجة بدرهم وانقلب إلى الرملة فخرب حصنها وهدم قسماً من اللد وخرب قلعة الأطرون فآخذ المركيز كونراد قلب الأسد على تمكين أعدائه من هدم وتخريب عسقلان ولكن قلب الأسد لم يعبأ بتقريعه ومال إلى عقد هدنة وفاوض الملك العادل وكان يدخل معسكر المسلمين ويطرب إلى موسيقى العرب ويعجب بنغماتها وبعد المذكرات اتفقا على شروط وهى:

أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسد أرملة ملك صقلية وتكون القدس وما فى أيدى المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكا وما فى أيدي الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضافاً إلى اقطاعها فى بلادها وواقق على ذلك صلاح الدين إلا أن القسيسين والأساقفة حالوا بين ذلك ومنعوه فانقطعت المفاوضة وعادت البلاد إلى الحرب فناجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس فتبعوه إلى الأطرون ففزع منهم وأمر بعمارة سور بيت المقدس وتجديد ما رث منهُ وكان ينقل الحجارة بنفسهِ مع العمال وأحكم الخل الذى ملك منهُ البلد وأتقنهُ وقوَّاه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسقلان وشرعا فى عمارتهالما لها من المركز الحربى والتجارى.

وفى سنة ٥٨٨هـ استولى الفرنج على حصن الداروم(*) ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومنها إلى قلونية فردتهم سرايا المسلمين فأغاروا على قافلة بجوار

(*) بين غزة والعريش ونظنه ثل العجول وفى جنوب غزة محل يدعى باب الداروم يؤدى إلى ذلك التل الذى يبعد فرسخاً عن البحر كما ذكر.

الخليل وأوقعوا بها ونهبوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفى شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها:

١- أن تظل عسقلان خراباً وتبقى أملاك صلاح الدين فى يده وأملاك الفرنج فى أيديهم وهى يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا واعمالها جميعاً أما اللد والرملة فتبقى "مناصفة" مشتركة بين الفريقين.

٢- وأن تكون الهدنة ٣ سنين و٨ شهور.

٣- وألاّ يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.

٤- وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمى هذا الصلح "صلح الرملة" وبعد انعقاد الهدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى انكلترا فتفقد صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب على القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته المنية فى صفر سنة ٥٨٩هـ الموافق شهر شباط سنة ١١٩٣م فدفن فى القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموى وقبره مشهور ولابد هنا من أن نذكر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول:

إنه وان كان صلاح الدين كردياً(*) فإنه كان من عظماء رجال الإسلام

(*) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية نزحت إلى بلاد الأكراد فامتزجت بالقبائل الكردية ويرجعون بنسب صلاح الدين إلى الحسن بن على بن أبى طالب.

وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من محاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها:

١- معاملته الحسنة الصليبي بيت المقدس مع أنهم من ألدّ أعدائه.

٢- ملاطفة أسرى حطين وتقديم الماء المثلوج إلى الملك.

٣- اكرام وفادة أرملة رنو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.

٤- حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكثهم بها وعفوه عمن أراد قتله. إلا أنه كان مفرطاً فى الحلم وكل شئ تجاوز حده انقلب إلى ضده فإن قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

إن صلاح الدين لم يكن قائداً فقط بل كان رجل أخلاق ودين يغار على الإسلام ويدافع عنهُ بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجانب من ديارهم وأباد الفاطميين وأيد كلمة العباسيين وبنى المدارس والرباطات ومات ولم يترك فى خزينته سوى دينار وأربعين درهماً فمن للشرق اليوم بمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براثن الموت والشقاء؟

(٥٥) صلاح الدين ومواسم فلسطين وشئ عن القبائل

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسيحيهم فنزح بعضهم إلى الأقطار العربية الخارجة عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملوك والأمراء والقبائل وصدم الفرنج فى وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فأسكنها القبائل وأقطعها لهم فتوطن القدس

موقتاً قبائل بنى حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحارة بنى مرة من جهة العرب الشمالي إلى سوق الفخر "خان الزيت" وحارة السعدية لبني سعد(*) ويلى عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بنى زيد وحارة الجرامنة سوق القطانين ثم وزعهم على البلدان التى حول القدس فأخذ بنى زيد ٩ قرية شمال رام ا لله وألحق بهم بنى مرة وهم ثماني قرى وبني سالم وهم فى أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يابا "مجدل الصادق" وماء نهر الأعوج والطريق بين القدس ونابلس. وأنشأ لهم موسماً فى مقام النبى صالح يقام فى جمعة زفة البياق "الجمعة الحزينة" فى القدس وأعطى بنى حارث ١٧ قرية جنوب بنى زيد وعمل لهم موسماً فى النبى عنير يوم الجمعة المذكورة واختص الأمراء الجرامنة بساحل يافا والعرق ووادي الصرار وبنى عمير وأخذ بنى حمار ١١ قرية وجعل لهم جميعهم موسى النبى صالح فى الرملة وأخذ بنى صعب ٢٨ قرية والحق بهم الشعراوية وعين لهم موسماً فى أبى العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلف عن المواسم الأخرى وأنشأ بغزة موسم الداروم وعمل إلى بدو غزة موسم المنطار وإلى بدو عسقلان وأطرافها موسم الحسين وعين إلى عرب المساعيد والمشالخة والصقر موسم أبى عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبى موسى الذى جمع له بنى مالك وهم ٢٤ قرية وبنى حسن وهم ١٣ قرية وجبل القدس وهم ٢٢ قرية والوادية وهم ٩ قرى وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين إلىالقدس. وتتوافد قبائـــــل

(*) منهم دار نجم وغيرهم كان لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه فى يدهم وكان لهم مفاضة في حيهم.

شرقى الأردن إلى مشهد النبى موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذى يأتى فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الأهالى فى نفير عام قد تجمهروا فى شعبان أخذ عسكر نبى صالح بنى زيد ونبى عنير بنى حارث ونبى صالح الرملة وروبين يافا وحسين عسقلان ومنطار العريان وداروم غزة وأبى العون بنى صعب وأبى عبيدة الغور ونبى موسى القدس مستعدين بسلاحهم وذخائرهم ومؤونتهم لمفاجأة الطوارئ فإذا ما حدث فتق فزعوا لرتقهِ لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكثهم بالعهود ما جعله يحتاط ويخشى أن هم دخلوا القدس زواراً ينقلبون جنوداً ويحتلون المدينة ويمتلكونها سلماً فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عيدهم لتكون القدس حينئذ غاصة بأهالي الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الأجانب ويعصم البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنوا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليه الشكر الجزيل والثناء الخالد لأنه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاصها. وجدير بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية فوائد اقتصادية واجتماعية.

(٥٦) فلسطين والدولة الأيوبية سنة ٥٩٠هـ -٦٤٨هـ وسنة ١١٩٣م - ١٢٥٠م.

أسست الدولة الأيوبية على عظمة صلاح الدين ودفنت بدفنه لأنه ألَّف بين عدة خيوط غير مؤتلفة ولا متفقة فانتقضت من بعده وقد أحس

صلاح الدين بهذا الخطر الذى يتهدد دولته فجمع القواد واعسكر عير مره وأخذ عليهم عهد الطاعة لولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقطعهُ دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وسورية الغربية فلما توفى صلاح الدين انتكث الغزل وانتشرت جماعاته افراداً وطمع بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقِل الملك الظاهر فى حلب وسورية الشمالية وربض الملك العزيز فى مصر واستولى عليها وطمع الملك العادل أخو صلاح الدين فى الكرك والشوبك واحتمى بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاثة دول الملك الأفضل والملك العادل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العادل ولع بإغراء بنى أخيه على بعضهم بعضاً وأنساهم عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومناهم بالملك فتشوف كل منهم إلى حصر السلطة فى يده والقضاء على ما سواه.

فتنبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل "أخرج عمنا من بيننا فانهُ لا يجيئ علينا منهُ خير ونحن ندخل لك تحت كل ماتريد" فرفض الأفضل وظل منصاغاً لدسائس الملك العادل فحنق العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العادل واستحثه فأتاه بجند كثيف وترددت بينهم الرسل على أن يضم إلى العزيز القدس وما جاورهم فرضى وقفل راجعاً ولكنهُ عاد إليها ثانية فلم يحل بطائل. ثم اتفق الأفضل والعادل على فتح مر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكا القدس من واليها سنقر الكبير وجاسوا بلاد مصر فانقلب العادل عن الأفضل ونكث عهده. ومالأ العزيز سراً وتوسط فى الصلح على أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو فى مصر فنجح

وبعدئذ اقنع العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلا وأخذاها منه وعوضاه قلعة صرخد فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر فقال:

مولاى أن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذا بالظلم حق علي
فانظرإلى حظ هذا الاسم كيف لقى من الأواخر ما لاقى من الأول

فأجابه الناصر:

غصبوا علياً حقه إذا لم يكن بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وأبشر فناصرك الإمام الناصر
فلما رأى الصليبيون الخلاف مستحكماً بين العرب هاجموهم

فناهضهم العادل وخيم على عين جالوت "بين جنين وبيسان" ثم رحل إلى يافا وملكها. وبعد أن توفى الملك لعزيز سنة ٥٩٦هـ ولى الأفضل الديار المصرية فخافهُ الأمير جركس "جهاركس" وفر إلى بيت المقدس وتغلب عليها ثم انضم إليه ميمون(*) القصرى حاكم نابلس فقويت شوكته وأرسلوا إلى العادل فجاءَ وأخذ البلاد من الأفضل وعوضهُ ميافارقين وبلاداً أخرى ولكنهُ لم يسلمها له.

وفى سنة ٥٩٧هـ حدث زلزال هدم قسماً من عكا ونابلس وفى سنة ٦٠٠هـ تحرك الفرنج ونهبوا قرى الأردن فنهد إليهم العادل وعسكر قرب

(*) المنتسبة إليه المدرسة "المأمونية"

جبل طور الناصرة ثم عقدوا معاهدة على ما يأتى..

أن يأخذ الفرنج الناصرة ويافا يتنازل العادل لهم عن البلاد المشتركة بنيها كاللد والرملة وغيرهما..

ثم فى سنة ٦٠٩هـ خرَّب الملك العادل حصن كوكب "قرب طبريا" ومحا أثره وبنى حصناً على جبل الطوَر ثم خربه الملك المعظم سنة ٦١٤هـ مخافة أن يملكه الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد ثم توفى العادل بعد أن قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل على مصر والملك المعظم على جميع سورية فسار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها وخوفه أن يحتلها الفرنج ويمتنعوا بها وعمل أبواب الخشب التى على باب المسجد وأوقف لمسجد الخليل حاصلات قريتى دوره وكفر البريك. وفى سنة ٦٢٥هـ سار الملك الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم تأخر إلى تل العجول(*) مشاقاً لاخوانهِ فقابله الملك الأشرف وحذره عاقبة الخلاف فرضى ولكن نفسه كان تحدثه بامتلاك جميع البلاد غير ملتفت إلى النجدات والحملات الصليبية المتعاقبة التى حاولت استرجاع القدس ولم تفلح. فلما استحكم الخلاف وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاة الفرنج ابتغاء التفرغ إلى بعضهم البعض فجاءَ فريدريك امبراطور المانيا سنة ٦٢٦هـ ١٢٢٩م وعقد معه الكامل هدنة على هذه الشروط:

(*) تل يبعد إلى الجنوب من غزة ١٥ كيلو متر تقريباً وربما كان حصن الداروم.

١- أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بضع ملحقاتها بشرط ألاَّ يعمروا السور الذى خربه الملك المعظم ولايتصدوا لقبة الصخرة ولا للجامع الأقصى.

٢- أن تظل "الرساتيق" الخليل ونابلس وطبريا والغور فى يد المسلمين.

فتم هذا الاحتلال السلمي الذى لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن الامبراطور فريدريك كان محروماً من البابا وغضب المسلمين على الكامل لأنه سلم القدس للفرنج بلا داع يستند عليه إلا ليتقوى بهم على إخوانهِ وأبناء عمه. وفى سنة ٦٣٥هـ توفى الملك الأشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل. وفى سنة ٦٣٦هـ أعطى الصالح أيوب سنجار والرقة إلى الملك الجواد وأخذ منهُ دمشق فطمع بمصر وسار بعساكره ليأخذها فغدره الملك الصالح اسماعيل والملك المجاهد "صاحب حمص" وهجما على دمشق وأخذاها فلما بلغ الصالح أيوب الخبر وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقصد نابلس ونزل بها فسار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأمسكه فاعتقله فى الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرب قلعتها التى بناها الفرنج وخرب برج داود وعاهد الصالح أيوب وتحالفا على الصخرة بأن تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلكاهما فتوجها إلى مصر وفتحاها فخاف الصالح اسماعيل وسلم الفرنج سنة ٦٣٨هـ صفد والشقيف وفى سنة ٦٤١هـ اتفق الصالح اسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتضدا بهم وسلما إليهم طبريا وعسقلان فعمروا قلعتيهما ثم أباحا لهم القدس

فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المنهزمين من وجه المغول وجنكيزخان.

(٥٧) الخوارزمية

ينتسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوارزم شرقى بحر قزبين وهم تتر كانوا أصحاب حكومة ودولة فلما طم عليهم سيل المغول وأباد حكومتهم ساحوا فى البلاد يقتلون وينهبون كل من اعترض طريقهم بلا تفريق بين دين ومذهب وصدف إن كان الناس فوضى قد انقسموا على أنفسهم وتفرقت كلمتهم فأصبح كل زعيم لايهمه سوى الاستئثار بالسلطة ولو بهدم أهله وذويه فمصلحته الشخصية فوق كل شئ إذا زاحمهُ قريبه استعان عليه بعدوهما الذى يجهز عليه بعد القضاء على ابن عمه فيكون بذلك كالباحث عن حتفهِ بظلفه قد طعن نفسه وهدم عشيرته وأهله الأقربين بمعول حب الذات والنفوذ.

ظل جنكيز خان المغولى يدحرج الخوارزميين وهم ينحرون أمامه ولم يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك فاستدعاهم اليه لمحاربة الفرنج وبنى عمه فاتفقوا معهُ على شرط أن يقطعهم الاقطاعات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة ٦٤٢هـ وانضموا إلى أمير العساكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظاهر غزة فهزموهم واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وفتح القدس وقطع رؤوس الكهنة وخرَّب القبر المقدس وألقى الرعب فى قلوب الأهلين.

ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها. وفى سنة ٦٤٣هـ فتحها وخاس بعهده مع الخوارزميين فنقموا عليه وحالفوا الملك الصالح اسماعيل عم الصالح أيوب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحاصروا دمشق فقلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة ولكن واليها حسام الدين قام فى حفظها خير قيام فانخذل المتحالفون ورُدوا على أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أيوب شرقى الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ٦٤٧هـ وفى سنة ٦٤٥هـ استعاد المسلمون عسقلان وطبريا من الفرنج فتحمس أهالى أوروبا وجردوا حملة صليبية سنة ١٢٤٨م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فعرجت على مصر وحاصرت دمياط فغلبهم المصريون وشتتوا شملهم ففروا أكثرهم إلى فرنسا والبعض الآخر إلى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات فى فلسطين وهو يحصن قيسارية ويافا مخافة أن يأخذها منهُ الوطنيون ولم تحدثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيراً رجع إلى فرنسا مخذولاً ولم يقم للصليبيين بعد ذلك قائمة لأنهم مكثوا فى البلاد أذلاء غرباء ضعفاء حتى سنة ١٢٩١م وسنة ٦٩٠هـ فسلموا عكا وصور وصيدا وبيروت وعثليت وانطرطوس وتركوا فلسطين وودعوها الوداع الأخير بعد ن دامت حروبهم قرنين وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهم بالخسران.

(٥٨) أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو اضرتها؟

ليس من السهل الجواب على هذا السؤال لأنهُ يفتقر إلى تفصيل ولكنا نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعاً أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة من مضارها الجسيمة ..

١- أنها أشعلت نار التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين وزرعت النفور بين الأهالى ونظن أن مداخلة الفرنج فى أحوال سورية وفلسطين اضرت ببعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم بأحلام جميلة فإذ هى سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمى العرب قد أحسنوا ورفقوا بمسيحيي العرب فى حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكروهم.

٢- أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية فى نفوس نصارى الشرق وزادوا ولاءً لبنى دينهم الأجانب وأكرم بنصارى فلسطين العرب الذين حافظوا على جنسيتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الدينى وراءهم ظهرياً ولزموا إخوانهم مسلمي العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطي وتغلب الذين هم من صميم العرب.

٣- فظاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة اخرى القضاء المبرم على الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات ستة أضعاف ماكانت عليه سابقاً.

٤- تلطيخ الدين المسيحى والازدراء بتعاليمه ومباديه لأن مسيحيى الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينيـة وراعـوا المصلحـة الانسـانية أكـثر مـن الفرنـج النـاكثي العهـود والقـاتلى الأسـرى والذيـن أفحشـوافى سـفك الدمـاء لمـا دخلـوا القدس وحقروا الديانة المسيحية فى مهدها ولكنهـم ذهبـوا وخلفـوا بقايـا كثيرة من جنسهم مما سنوضحهُ فى تـاريخ قبـائل وأسـر فلسـطين. فبعـض الألقاب الموجودة فى بيت لحم والناصرة والقدس وبيت جالا وغزة ويافـا تدل على أن حاملهـا ليسـوا عربـا ولكـن اصطبغـوا وطبخـوا فـى معمـل العربية وتزوجوا بنساء شرقيات عربيات وتوطنوا فى البلاد واندغموا فى أهلها وكذلك يوجـد قبيلـة بدويـة خلـف الجـوف تدعـى "صليبـة" شـقر الوجوه لايتزوج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبـين كمـا ورد فـى تاريخ سينا والمقتطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبـق إلا قليلهـا: منهـا كنيسـة الصلاحيـة وبقايـا كنيسة البيرة والدير فى الرملة وحصن عثليت وقلاع صفد وطبرية والشـوبك والكرك. ولم يؤثروا على لغة السكان ولهجتهم بل ظل العـرب عربـاً يخـاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة انتزاجمة ولم يتعلم أحد الفريقين لغة الآخر لما بينهما من سابق العداوة المتأصلة فكان إذا تغلب فريق على مدينة نزح عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليـلاً فخـف الكـره والبغـض كمـا ورد فـى رحلة ابن جبير الأندلسى ومما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسورية:

"هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهى صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للفرنج يسمى "هونين" بين الفرنج والمسلمين ولهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ويتشاطرون الغلة على السواء ومواشيها مختلطة ولا حيف يجرى بينهم .. إلخ. ثم جاء إلى تبنين فى عجلون حيث يقدمون فيه والضرائب "جمارك" فقال والضريبة دينار وقيراط صورية ولا اعتراض على التاجر ثم مرّ بضياع كثيرة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم وديناراً وخمسة قراريط جزية على كل رأس ونزل بضيعة من ضياع عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرفأ ومركزها التجارى وكثرة سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال أنه قدم قطية حيث تؤخذ فيها الزكاة وتفتش أمتعة التجار "جمرك" وهناك كتاب ومجباها كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غزة فوصف عمارتها وأسواقها ومساجدها وعلماءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال أنها مدينة صغير الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعى وعرج على تربة يونس عليه السلام ثم زار بيت لحم وقال أنهم يضيفون الغرباء وأتى القدس فوصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلماءها وروى أن الأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر

ابن بطوطة إلى عسقلان فوجدها خراباً بباباً [ولا ندري لماذا لم يزر عسقلان لما كان فى غزة] ثم سافر إلى الرملة فقال أنها كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسى. ثم خرج منها إلى نابلس وقال أنها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق الشام وبها تصنع حلواء الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجتاز غور أبى عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث فى سورية مدة ورجع إلى زيارة الحجاز فركب بصحبة الأمير محمد بن رافع شيخ قبيلة العجارمة فمر بذرعاه ثم بصرى وزيزاء "جيزة" واللجوم وحصن الكرك ووصفهُ وبالغ فى مناعته.

(٥٩) فرسان مار يوحنا "الاسبتاليون"

أسس الصليبيون هذه الفرقة وألفوها لتمريض الجرحى والمرضى وخدمة الانسانية البحتة "كالصليب الأحمر" فأتخذوا اسمة خاصة وهي رسم صليب ذي ثماني نقط على جنب لباسهم الأيسر وجعلوا دير مار يوحنا فى سوق افتيميوس جنوب كنيسة القيامة مستشفى لموآساة الضعفاء ثم تغيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى أنهم كانوا أشد الجنود الصليبية على صلاح الدين وأكثرهم نكاية بجنده وأثبتهم امامه ولما خرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استماتوا فى الدفاع عن الصليبيين ولكنهم جلوا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذها منهم العثمانيون فنزحوا إلى مالطة ولايزال منهم جماعة تمثلهم وتحيى ذكرهم فانهم أنشأوا فى

القدس مستشفى عيون فى البقعة واقعاً بين بركة السلطان والمحطة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيادى البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم مداواتها ويؤمه فى عهدنا هذا ألوف من الناس للاستشفاء. ولهم أيضاً مضافة (Hospice) فى آخر شارع الخانقي بالقرب من سوق خان الزيت.

(٦٠) فرسان الهيكل

تألفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتهم حماية الزوّار وايصالهم إلى القدس وحراستهم من تعدي المسلمين غير أنهم تحوّلوا إلى فرقة عسكرية شديدة البأس والشكيمة واتخذوا الجامع الأقصى مقرّاً لهم وجعلوه مخزناً لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محلات أُخرى فاستبدوا وظلموا وولعوا بالنهب والسلب ولذلك أنذرهم صلاح الدين بأنه لايأسر أحداً منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانقرضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قيض ا لله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسرة الأيوبية فقضى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءَه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠م. وسنة ٦٤٨هـ حيث ضعفت شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيبرس توران شاه سنة ٦٤٨هـ وانتخب بعده "شجرة الدر" وهي الملكة الوحيدة التى توجت فى الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنفر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب

حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية فـى حكمـه فعظـم الخـبر علـى المصريين وخلعوها وولوا أمرهم عز الدين أيبك "المملوك" ولقبوه بـالملك المعـز فتزوج شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنـهُ لم يـرق لهـم هـذا العمـل واختـاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا أن يكون أيبك أتـابك جنده فغضبت دولـة دمشـق الأيوبيـة وسـار الملـك النـاصر يوسـف إلى مصـر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزما واحتدم الخـلاف بـين مصـر الأيوبيـة تحـت إمـارة المماليك ودمشـق الأيوبيـة البحتـة إلى أن أصلـح بينهـم الخليفـة العباسى على أن يكون الحـد الفـاصل بينهمـا نهـر الأردن ثـم ثـار أيبـك سـنة ٦٥٢هـ وخلع الأشرف واستبد بالملك فشق ذلك على المماليك ورحلـوا إلى دمشق وأطمعوا صاحبها فى ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهناك اتفقوا على أن يكون حد الدمشقيين العريـش. وفـى سـنة ٦٥٧هـ قدمـت عسـاكر هولاكو التتري وتملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشـرف سـنة ٦٥٩هـ فانقرض ملكهم من الشام كما انطفى من مصر.

***

الفصل الثانى عشر

فلسطين فى حكم المماليك

(٦١) المماليك البحرية

المماليك جمع مملوك وهم الجماعة الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء فترقوا من خادم إلى ملك ومن أجير إلى أمير ويرجع أصلهم إلى الأسرة المغولية من سكان أواسط آسيا. فالسلجوقيون والخوارزميون والمماليك والعثمانيون من فصيلة واحدة بعضهم نزح بعياله ومواشيه إلى حدود المملكة العربية خشية بطش جنكيز خان أو غيره وبعضهم كان يجلب ويباع فى العواصم أو يقدم هدايا للملوك والأمراء فمن كان منهم قوياً ذكياً كان يقدمه جده ومقدرته فيلبس التاج ويؤسس مجداً باسقاً ومن كان منهم ضعيفاً عاش خاملاً ومات خادماً ومن يتصفح تاريخ الحكومات العربية ويستقصي حوادثها يدرك لأول وهلة سراً خطيراً وهو أن جميع الدول كانت تستكثر من الخدم "المماليك" وتكرمهم وتقربهم وترقيهم وتمنحهم القاب الأمراء وتقطعهم البلاد فيستبدون ويتحكمون ثم يؤسسون حكومات تكون فروعاً للجذع الذى نبتوا عليه فإذا ما عظموا قطعوا عنهُ وأصبحوا وهم العبيد أصحاب البلاد. وما من دولة إلا ارتكبت هذه الغلطة فانقرضت وتلاشت جميعها عن أيدى مماليكها وخدمها ولم تتعظ واحدة منها بالأخرى وليس هذا بعجيب لأننا معاشر الشرقيين بسطاء

القلوب مخلصون سمحون متساهلون لا توقظنا عظة الادهار ولاتنبهنا حوادث الأعصار شأننا فى جميع أمورنا وأعمالنا ولو انا طفنا بيوت الأسر الكبيرة لكشفنا ذلك السر ولاطلعنا على أمور توضح لنا أسباب رقي أولئك المماليك ونجاحهم وإليك أيها القارئ الكريم مثالاً.

يأتي السيد العربي بخادم أو خادمة إلى بيته فيجعله فردا من العائلة ويشركه فى أمره ويد الله ويطلعُه على أسرار البيت وعورات أهله ودخائله فيعرف فقره وغناه ومقامه الحقيقي والظاهري ويتدخل بينهم فيجدهم أحزاباً يستعين به أحدهم على الآخر ويتقوى به أضعفهم ويستند عليه أعجزهم فيحترم ويكرم ويتنافسون فى استمالته إليهم حتى يصبح مستشاراً لا خادماً فيخالفهم ويخاشنهم. أما الغربيون فيظل خادمهم خادماً لا يعرف من أمرهم شيئاً وليس له عليهم من سبيل؛ وربما طردوه لأقل ذنب اقترفه أو خطأ جناه ولو كان طفيفاً.

تشعبت الدولة الأيوبية وطمع بها كثيراً وأصبحت البلاد لمن غلب فاستكثر الملك الصالح المماليك وقربهم منهُ وولاهم الإدارات فاستفحل أمرهم وقويت شوكتهم وسطع نجمهم وأيدهم السلاح الذي بين أيديهم فنالوا المناصب العالية وأصبح الحل والربط منوطاً بهم فاحتقروا آخر ملوك الأيوبيين وخلعوه واستبد بالملك أيبك الجاشنكير أول ملوك المماليك البحرية الذين لقبوا بهذا اللقب لأن مقرهم كان فى جزيرة النيل عند نقطة سميت بالبحر لاتساعها تميزاً لهم عن المماليك الجراكسة.

(٦٢) قطز الملك المظفر

ولى السلطان قطز الملك سنة ٦٥٧هـ وهو الثالث من ملوك المماليك البحرية ولم يدم سلطانه سوى أحد عشر شهراً لأن هولاكو زحف بجموع كالجراد المنتشر فدخل بغداد "دارالسلام" وقضى على حضارتها ومدنيتها الباهرة وانا نسطر هذه الفاجعة الأليمة المحزنة فنقول: كان هولاكو تترياً من أحفاد جنكيز خان وله حكومة قوية فاستدعاء مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم لفتح بغداد فلباه وهاجم البلاد العربية وكان لايأتي إلى بلد أو مدينة إلا وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً فلا يترك رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً إلا قتله فوصل بغداد وحصرها وضيق عليها فخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي [مسبب هذه النقمة] إليه وتوثق منهُ لنفسهِ وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال له ان هولاكو سيبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم في "الأناضول" ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر وحسن له استقباله فخرج المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه ونزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسين وظلوا يخرجون إلى التتر طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا وكان منهم محيى الدين بن الجوزي وأولاده فأمر بقتلهم جميعاً ثم مدوا الجسر ودخلوا بغداد واعملوا السيف في أهلها وهجموا على دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا ألصغار ودام القتل والنهب نحو أربعين يوماً وقتل الخليفة ولم يعرف طريقة اغتياله ثم نودى بالأمان.

هكذا ختمت الخلافة العباسية البغدادية التى أجلّها واحترمها وهابها

السلاطين والملوك فداسها هؤلاء البرابرة بأرجلهم القذرة سنة ١٢٥٧م و٦٥٦هـ بعد أن عمرت خمسة قرون ونيفاً وتركت من المآثر الجليلة ما برزت بها على الأولين وبذت السابقين.

انقضت هذه الصاعقة أو الفاجعة بل الطامة على العرب فذعروا واستسلموا أو تمرد هولاكو فاستولى على العراق وتقدم غرباً وجنوباً إلى سورية ففر الملك الناصر من دمشق بأولاده ونسائه وأتباعه ونفائس ذخائره إلى بركة الكرك "زيزاء" فجاء نائب هولاكو القائد كتبغا وتسلم دمشق بأمان ثم بحث عن الناصر حتى عرف مقره فأمسكه وبعث به إلى هولاكو فقتله وانقرضت به الدولة الأيوبية الدمشقية ثم زحف التتر إلى عجلون وفلسطين وقدموا غزة وامتلكوها فالتقاهم الملك قطز وصحبته المنصور صاحب حماة والتحم الجيشان فى الغور على عين جالوت بين بيسان وجنين فكانت موقعة كبرى قتل فيها كتبغا وأسر ابنه ثم قتل وتأثر فلولهم بيبرس ومازال يفتك بهم حتى أخرجهم من البلاد ورجع فقتل الملك المظفر قطز واستوى على العرش.

(٦٣) الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

لاريب أن السلطان بيبرس هو أعظم المماليك وأشدهم بأساً فإنه حكم فلسطين وحارب مابقى فيها من الصليبيين وانتزع منهم الشوبك والكرك وفتح قيسارية وأرسوف وصفد وذبح أهلها وفتح يافا واهتم بالأماكن المقدسة ورمم قبة الصخرة وزاد فى أوقاف الحرمين الشريفين الأقصى والخليل وفى سنة ٦٦٨هـ سنة ١٢٦٩م عمَّر النبي موسى وزاد فيه ورتب موسمه وحسنه وقاوم

الفرنج.

(٦٥) محمد قلاوون

ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خلع مرتين وعمر فى القدس المساجد وأنشأ المآذن وصد هجمات ملك التتر قازان الذى أوغل فى البلاد وتجاوز حدود فلسطين فوجس الناصر وجهز سلار وبيبرس الجاشنكيز بجيش لمحاربتهم فاجهزوا عليهم وردوهم على أعقابهم منقلبين.

ولاحاجة للافاضة فى هذا المختصر عن سيرة كل ملك من المماليك البحرية لأنه لم يحدث بفلسطين شئ جدير بالذكر غير خلع الملك هذا وتعيين ذاك مما لا يهم القراء معرفته.

(٦٦) المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية

كانت منازلهم فى سيبريا حول بحيرة بيكال فهجروها واستوطنوا بلاد الجركس وقفقاسية وما وراءها فاستقدمهم الملوك والأمراء واصفطوهم واستكثر منهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية فقضوا على سلطتهم بأسلوبهم العجيب وهو تنصيب الأحداث والضعفاء من أبناء الملوك على سدة السلطنة لسهولة نزعها منهم ثم يكفله أحدهم ويدير شؤون المملكة فيستبد بالسلطان ويتربص له ويخلعه وأول ملوك المماليك الجراكسة.

(٦٧) أبو سعيد برقوق "الظاهر"

هو أحد موالي بنى قلاوون النابهين ساعده جده فبرز على قرانه ونال

التتر وصد هجماتهم عن سورية وفلسطين.

(٦٤) انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

ومن الأعمال الجليلة التى قام بهـا الملـك الظـاهر بيـبرس نقلـه الخلافـة العباسية من العراق إلى مصر فانه لما استأصل هولاكو شأفة الأسرة العباسية المالكة فى بغداد ذهب إلى مصر رجَل بغدادي أسمر اللون اسمه الإمام أحمد وادَّعى أنهُ عباسي فقبله بيـبرس لغرض سياسي ودعا إليه القضاة فى مصر فاثبت نسبه إمامهم وبايعوه بالخلافة ولقبوه المستنصر وكانت العامة تلقبهُ بالزراتيني ثم ثم أَرسله إلى بغداد فقتله التتر قبل وصوله. ومات الملك الظاهر بيبرس فى دمشق ودفن بالقرب من الجامع الأموى.

بدأ شأن الخلافة فى الضعف منذ عهد الراضي سنة ٣٢٢هـ الموافق سنة ٩٣٤م عندما فصلت عنها السلطة الزمنية واستبد الملوك والأمراء وأصبح الخلفاء شيوخ زاوية يتبرك بهم بل هدفاً للسجن والقتل فجاءَهم هولاكو وأبادهم وثل عروشهم فنقلوا إلى مصر وزادوا ضعفاً فوق ضعفهم حتى بلغ من الملك الناصر أن نفى الخليفة المستكفي إلى قرية قوص ومن ملوك هذه الدولة السلطان الملك المنصور قلاوون الذي فتح طرابلس الشام واسترِدها من الفرنج بعد أن مكثت فى أيديهم ١٨٥ سنة ثم خلفه ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذى هدم قبور خلفاء الفاطميين فى مصر وبنى مكانها خاناً دعاه الخان الخليلي بقرب مشهد الحسين وفتح عكا وقتل أهلها وخرَّبها وتسلم عثليت وفى عصره سنة ٦٩٠هـ خلت سورية وفلسطين من

حظوة عند أسياده فاغدقوا عليه نعمهم وأحلوه صدر مناصبهم وأعلاها فجنحت نفسه للعرش ونهج منهج أسلافه المماليك فاختار حاجي الصغير ابن السلطان شعبان وكفله وناب عنهُ فى المملكة وما زال به حتى خلعه واستوى على عرشه فانتقض عليه الأمراء وبعد عراك شديد تغلب عليهم وشردهم فالتجأ أحدهم منطاش إلى آل الفضلِ عرب الأمير محمود الفاعور واحتمى بهم فدافعوا عنهُ وحاربوا معهُ وأخيراً أخذوا له الأمان وسلموه فخاس برقوق بعهده وفتك به فصفا له الجو وقرت عينه بالملك. وفى سنة ٧٩٦هـ كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس شهاب الدين الأمير أحمد بن اليغموري "وله أسرة فى الخليل والشام" فأبطل المظالم والمكوس التي عملها سواه ولما زار الناصر فرج بن برقوق القدس رأى على نيابتها ونظارة الحرمين حاكماً واحداً فلم يستحسن ذلك وجعل لكل منهما مأموراً خاصاً فتعين الأمير ناصر الدين النشاشيبي ناظراً للحرمين فقط وأسرته فى القدس كبيرة ومشهورة.

(٦٨) مجيئ التتر

اشتهر من التتر ثلاثة ملوك عظام الأول جنكيز خان مؤَسس الدولة والثاني هولاكو مبيد مجد العرب وطافئَ سراج مدنيتهم ومحرق مكتباتهم ومدارسهم فى بغداد والثالث تيمورلنك ملك سمرقند الذى اجتاح البلاد وفتح خراسان وتركستان والهند وفارس واخترق الأناضول وأسر السلطان العثماني بايزيد ثم انقلب إلى سورية سنة ٨٠٣هـ فأمر فرج بن برقوق سائر النواب

بالتوجه إلى حلب ليمنعوها منهُ ففعلوا ولكنهم عجـزوا عـن رده وصـد غاراتـه فحاربهم وانتصر عليهم وفتح حلب وأمعن فى النهب والفتك وسـفك الدمـاء البريئة وسار إلى الشام فامتلكها وأحرقها ونكل بأهلها وأحرق الجـامع الأمـوي وفتك بالأهالي وعاث في الأرض فسادا.

ولما ولي السلطان الملك الظاهر خشقدم عمر قناة السـبيل وأجـرى بهـا ماء العروب إلى القدس ومن ملوك هذه الـدول السـلطان قايتبـاي الـذى عمـر كثيراً وطـالت سـلطنته وقـد حـدث فـى عهـده وقـائع عموميـة نذكـر بعضهـا باختصار مفنها:

أنه فى سنة ٨٧٨هـ نشبت فتنة فى الخليـل بـين الأكـراد "الحموريـين" وبين الدارية "التيمية" المتشعب منهم سكان قريتى النبى صالح ودير نظام وتمو نابلس فقتل من الفريقين ثمانية عشر رجلاً. ومنهـا الفتنـة التـى حدثـت بسـبب كنيسـة اليهـود وتشـدد متعصبـو المسـلمين إلى أن تفـاقم الخطـب. وفـى سـنة ٨٨٠هـ خيم السلطان على بركة الجاموس قرب الرملـة فسـرق لـه اللصـوص بقجة قماش من الخيمة التى كان نائماً فيها فاستدعى شـيخ بـني صعـب حـرب الجيوسي وحبسـهُ ثم غرمهُ مالاً.

ومما يدل على ضعف الحكومة وقتئذ أن حاكم القدس قتـل جماعـة مـن بني زيد فهجـم عصبتهـم وأعوانهـم ونهبـوا المدينـة ودخلـوا المسـجد شـاهري السلاح وهرب من وجههم الحاكم فتمردوا وكسروا بـاب السـجن وأخرجـوا منهُ المساجين.

وسنة ٨٨٨هـ اختلف السلطان قايتباي والسلطان بايزيدالعثمانى فجمعوا من فلسطين الجنود "تجريدة" وصرفوا لهم المعاشات فاخذوها ونكلوا عن الحرب.

وفى سنة ٨٩٤هـ حضر أبو العويس أمير عرب الجرامنة "جد العويسات فى بيراما عين والبرج" وطرح مظلمة على الفلاحين فعارضهُ نجم الدين ابن جماعة "من أجداد دار الخطيب" واسترحم من الدوادار(*) أن يمنعهُ فلبى طلبه.

وفى ١٩ ربيع الأول لسنة ٨٩١هـ الموافق ٧ كانون أول تساقط الثلج فى القدس من يوم الثلاثاء حتى يوم الخميس فتراكم كثيراً مثل ثلجة سنة ١٩١٩م وفي هذه السنة حدث خلاف بين حاكم غزة وحاكم القدس وتداخل بينهما السلطان وأصلح ذوات البين وظلت البلاد فى انحطاط حتى التهمها الأتراك العثمانيون.

(*) هو الدمدار "قائد المؤخرة" والبيشدار "قائد الطليعة".